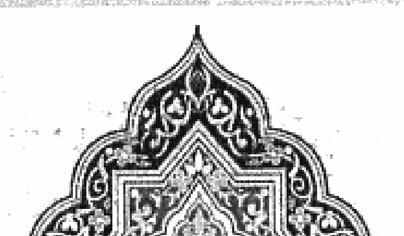



قطاع الثقافة

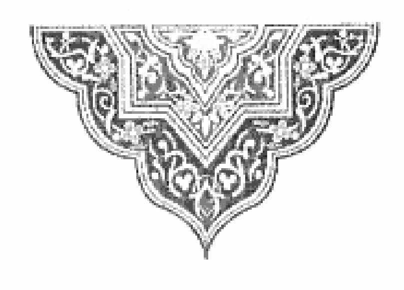
مكتبة الشعراوى الإسلامية



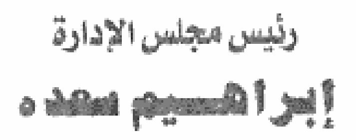
# المعجزة الكبرى

فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى



رئيس مجلس الإدارة



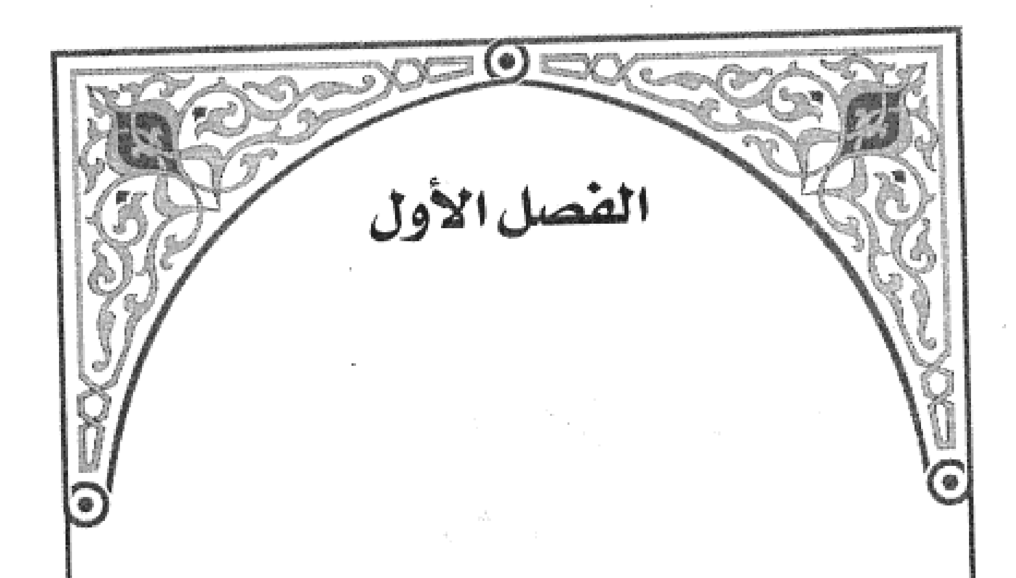
بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة والسلام على
سيدنا رسول الله.
أسأل الله أن تكون هذه الكتب
التي سنصدرها مكتبتي خطوة على
طريق الهدى ونور أجنحة اليد للإيجاد
والله نسأل الهداية والتوفيق

محمد متولي الشعراوي

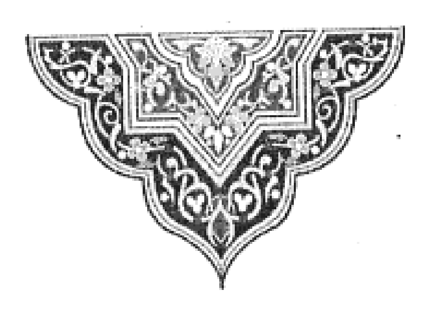
الغلاف
أسامة أحمد نجيب

الإخراج الفنى
عبد الكريم محمود



## الفصل الأول

# قبل المعجزة



## الرسول .. والرسالة

أيد الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بمعجزات كثيرة ، هذه المعجزات بعضها مادى ، يراه الناس ، فقد نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، وكان الغمام يظلله أينما سار ، وانشق له القمر ، وغيرها كثير .

ولكن هناك معجزة كبرى لم يُتَح لبشر أن يطلع عليها ، بلغ فيها رسول الله ﷺ سدرة المنتهى وتجاوزها ليرى الآية الكبرى لله فى السموات ، ووصل ﷺ إلى منزلة أعلى من منزلة جبريل عليه السلام ، أقرب الملائكة إلى الله جل جلاله ، فعند سدرة المنتهى توقف جبريل ليتقدم رسول الله ﷺ .. وقال جبريل للرسول الكريم : أنت يا رسول الله ، إنْ تقدمتَ اخترقتَ ، وأنا إن تقدمتُ احترقتُ .

وهذا الكتاب عن المعجزة الكبرى التى خص بها الله رسوله ﷺ وهى الإسراء والمعراج ، فما من نبى صعد إلى السموات ، حتى بلغ سدرة المنتهى وتجاوزها ، ثم عاد فى نفس الليلة ليكمل حياته على الأرض إلا خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

وحينما نتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج ، فلا بد

أن يسبق ذلك حديث عن الأسباب التى سبقت المعجزة ، أو التى حدثت من أجلها المعجزة ، رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ، وصاحب الخلق العظيم ، بُعِث بالرسالة الخاتمة إلى الدنيا كلها .

وأُعدَّ ﷺ إعداداً إلهياً لتحمُّل الرسالة الكبرى ، خاتم رسالاتَ السماء إلى الأرض ، فجعله ربه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، حتى لا يقال : إنه أخذ عن حضارات الأمم السابقة ، أو أنه تعلم على يد معلم فروى له وعلَّمه .

ولكن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يكون هو وحده المعلِّم لرسوله الكريم ، وأن يكون تلقِّى العلم لرسول الله ﷺ من الله جل جلاله مباشرة ، ودون أىِّ حضارة أرضية ، وكانت هذه فى حَدِّ ذاتها معجزة ، أن يختار الله - سبحانه وتعالى - رسولاً أمياً .. ثم يجعله معلماً للبشرية كلها إلى يوم القيامة .

وهكذا نشأ محمد ﷺ ، لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يعرف عن حضارة الدنيا شيئاً ، ولم يقرأ حرفاً فى حياته ، ولذلك عندما نزل جبريل - عليه السلام - بأول آية من القرآن الكريم وقال : ﴿ اقْرَأْ .. (١) ﴾ [العلق] رد رسول الله ﷺ بفطرته السليمة « ما أنا بقارىء » أى : لا أعرف القراءة والكتابة .

ولكن الْمَلَكَ ضم رسول الله ﷺ إليه ، وقال له :

﴿ اقْرَأْ.. ﴿١﴾ ﴾ [العلق] للمرة الثانية .. ورد الرسول الكريم ﷺ قائلاً : « ما أنا بقارئ » ..

وتكرر نفس المشهد للمرة الثالثة .

والسؤال هنا .. ألم يكن الحق - سبحانه وتعالى - الذى أرسل جبريل عليه السلام يعرف أن محمداً ﷺ لا يقرأ ولا يكتب ؟ إنه هو الذى اختاره أمياً ، وأعلن ذلك فى التوراة والإنجيل وفى الكتب السماوية .. قبل أن تبدأ حياة رسولنا الكريم على هذه الأرض بوقت طويل .

وإذا قرأتَ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

تجد أن هذه الآية الكريمة قد نزلت بعد أن حكى الحق - سبحانه وتعالى - قصة اليهود عندما عبدوا العجل ، وكيف أن موسى - عليه السلام - اختار من قومه سبعين رجلاً .

وكلمة اختار معناها أن ما فعله موسى هو فعل اختيارى يستخدم فيه العقل ، اختار موسى - عليه السلام - سبعين رجلاً .. رجل من كل سِبْط من أسباط اليهود .. حتى تكون كل فرق اليهود مُمثَّلة .

وفى الموعد المحدد للقاء الله .. أراد الله - جل جلاله - أن ينبه قوم موسى إلى خطورة ما فعلوه بعبادتهم العجل ،

فأخذتهم الرجفة وهى الزلزال الشديد ، الذى يهز الإنسان هزاً عنيفاً بحيث يحس أن روحه تكاد تغادر جسده .

وكانت هذه الرجفة عقاباً على إن هؤلاء الرجال لم يقاوموا اليهود الذين عبدوا العجل مقاومة جدية وعنيفة .

وهنا تضرع موسى إلى ربه وقال : يا رب .. أنت أرحم من أن تُهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فاكتب لنا رحمة فى الدنيا والآخرة ، ثم أنبأ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ موسى ليبلغ قومه بأن رحمة الله مكتوبة للذين يتبعون الرسول النبى الأمى .

وهكذا نعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختار رسوله أمياً منذ الأزل ، وهذا إعجاز للرسول الكريم صلوات الله عليه ، حتى لا يقال : إنه قرأ فى كتب الأولين .. أو جلس إلى معلم .

إذن : فجبريل ناطقاً بالوحى .. مُرْسلاً بكلام الله .. قائلاً إقرأ .. كان يقصد معنى آخر غير القراءة والكتابة الدنيوية .

ولذلك جاءت الآية الكريمة :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يلفتنا إلى أن رسوله الكريم الأمى سيعلمه الله ليكون مُعلماً للبشرية كلها إلى يوم القيامة .

## الحق والظلم

واختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله مشهوداً له بالصدق من قومه ، فقد عاش بينهم أربعين سنة قبل البعث بالرسالة ، لم يعرفوا عنه ﷺ كذباً قط .. وكان ـ وهو المُلقّب بالأمين ـ يحفظ عنده الناس ما يخافون عليه من أغلى ما يملكون .

ثم كُلِّف رسول الله ﷺ بالرسالة ، وطُلِب منه ـ عليه السلام ـ أن يجهر بالدعوة ، ولكن سادة قريش وزعماءهم تصدوا له ؛ لأنهم رأوا فى دعوته عليه الصلاة والسلام نهاية لظلمهم وضياعاً لنفوذهم ، فبدأوا يحاربون الدين الجديد من أول يوم ، ذاك الدين الذى جاء ليسوى بين السيد والعبد ، ويعطى الحقوق لأصحابها .

وكانت صيحة الإسلام قوية فى آذان أئمة قريش ، فزلزلتهم ، وجعلتهم يحاولون أن يحتووا هذا الدين الجديد بأية وسيلة ، وكان لرسول الله ﷺ حمايتان يحميانه من الإيذاء الخارجى بنفوذهما ، فكانت قريش لا تستطيع أن تتعرَّض لرسول الله ﷺ بإيذاء مباشر ، الأولى : حماية عمه أبى طالب .

أما الحماية الثانية فكانت من زوجته السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ التى كانت خَيْر سكن لرسول الله ﷺ

فإذا عاد إلى البيت أخذت تُسَرِّى عنه ما يلقاه من عناء قريش واضطهادهم ، فتمسح بيدها كل آثار ما لاقاه رسول الله ﷺ من عنت وعذاب .

وبدأ قادة قريش وزعماؤهم يبحثون عن حل ، إزاء هذا الدين الجديد ، الذى جاء ليسلبهم سلطانهم ونفوذهم الدنيوى ، وكان أول ما فكروا فيه .. هو أن يعطوا رسول الله ﷺ ما يريده من جاه الدنيا ، لينصرف عن هذه الدعوة ، ولأنهم عبدة دنيا فكانوا يعتقدون أن المال أو السلطان أو النفوذ .. هو هدف رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاجتمعوا وقالوا : نعطيه الدنيا لعله يترك هذه الدعوة وينصرف عنها .

وذهبوا إلى عمه أبى طالب ، ليعرض على رسول الله ﷺ عرضهم الدنيوى . قالوا : إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإنْ كنت تطلب الشرف فينا سَوَّدناك علينا ، وإنْ كنت تريد ملكاً ملَّكناك علينا ، وإنْ كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك ( وهم يقصدون بذلك الوحى ) رئْياً تراه قد غلب عليك ( الرئى هو الجن ) ، بذلنا من أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه .

ولكن كل هذه العروض ومغريات الدنيا .. لم تُثرْ فى

نفس رسول الله ﷺ ولا قطرة من الإغراء ، فقد جاء يدعو الناس إلى العمل من أجل الآخرة ، ولم يجىء ليغريهم بمال الدنيا وسلطانها ؛ لأن الآخرة هى الحياة الحقيقية للإنسان ، ففيها الخلود ، وفيها النعيم بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وفيها من النعم ما لا عَينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

ولذلك حينما أراد عمه أبو طالب أن يقنعه بالعرض الدنيوى ، الذى تقدم به كفار قريش ، قال رسول الله ﷺ : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أُبَلِّغَ هذا الأمر أو أَهْلِكَ دونه ما تركته » .

## محاولة التشكيك والتعذيب

وهكذا فشل الإغراء الدنيوى ، وأحسَّ كفار قريش وهم يرون الدين الجديد يزداد انتشاراً ، أنهم لا بد أن يبحثوا عن وسيلة أخرى .. يواجهون بها دعوة رسول الله ﷺ فقالوا : نُشكِّك أتباعه فى الرسالة ، ندخل الشك إلى قلوبهم فى أنه ليس رسولاً ، فإذا دخلَ الشك فى قلوبهم ، انصرفوا عنه وانتهت الدعوة .

وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

وهكذا ردت السماء على الكفار ، وفشلت المرحلة الثانية ، واقتنعوا أنهم إن لم يستطيعوا إغراء رسول الله ﷺ أو التشكيك فى رسالته ، فإنهم لا بد أن يبحثوا له عن طريق آخر ، هو أن يُعذِّبوا كل من اتبع دين محمد وآمن برسالته تعذيباً وحشياً يصل إلى القتل ، حينئذ سينصرف الناس عن الدعوة خوفاً من بطش سادة قريش ، ولا يجد رسول الله ﷺ مَنْ يؤمن برسالته .

وبدأ التعذيب ، ولم يكن هناك مَنْ يحمى أتباع رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد كانوا ضعفاء ، وكانوا قلة ، وكانوا أذلة ، ولم يكن أمامهم إلا تحمُّل التعذيب .

وكان آل ياسر الذين جاءوا من اليمن وأسلموا فى مكة ، هم أول شهداء فى الإسلام ، كان الأب هو ياسر ، والأم سمية ، والابن عمار بن ياسر .. حاول أبو جهل والكفار معه أن يفتنوهم عن دينهم فلم يفلحوا ، فأخذوهم إلى البطحاء ( أى الصحراء ) بعيداً عن قلب مكة وأخذوا يعذبونهم .

ومر رسول الله ﷺ عليهم ، وهم يُعذَّبون فقال : « صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة » .. واستمر التعذيب حتى استشهدت سمية بطعنة فى بطنها من حَرْبة أبى جهل ، وكذلك استشهد زوجها .

## بشارة السماء

وتوالت أحداث التعذيب على كل مَنْ آمن برسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - ولكن هذا لم يجعل أحداً من الذين آمنوا .. يرتد عن إيمانه ، بل كانوا يزدادون إيماناً وتمسكاً بدينهم ، ويرددون وهم يُعذَّبون : أحد .. أحد .. وكانت هذه الكلمة تزلزل الكفار من الداخل ، وتجعلهم يُعذِّبون المسلمين بقسوة وغلْظة وضراوة ، والسماء ترقب ما يحدث . والقرآن يُبشِّر المسلمين بالنصر ، وبأنهم هم الذين سيَغْلبُونَ وينتصرون .

وينزل قول الحق - تبارك وتعالى :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ويقرأ رسول الله ﷺ الآية الكريمة ، ويقول عمر رضى الله عنه : أيّ جمع هذا ونحن قلة وأذلة ؟ وتمضى السنوات ، ويلتقى المسلمون والكفار فى غزوة بدر ، ويُهزم الكفار ، ويفرون من أرض المعركة ، بعد أن قُتل منهم أكثر من سبعين من زعماء قريش .. ويقف عمر بن الخطاب وقد وضح التأثر الشديد على وجهه ، وهو يقول : صدقْتَ يا رب .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وهنا لنا وَقْفة ، ألم يكُن الله سبحانه وتعالى قادراً على

أن ينصـر دينه من أول يوم ؟ ألم يكُنْ جل جـلاله قـادراً على أن يجعل أئمة قريش أول مَنْ يؤمن ؟

نقـول : إن الله ـ سـبـحـانه وتـعـالى ـ أراد أن يكون المسلمـون الأوائل هم قمة الإيمان ، لا تغـرهم دنيا ، ولا يفـتنهم مال ، ولا يريدون شـيـئاً إلا الإيمـان والتقـوى ؛ ولذلك جعلهم قلـة .. وجعلهم أذلة دنيوياً فـقط .. حتى لا يدخل هذا الدينَ إلاّ صـادقُ الإيمـان ، الذى يضحى بمـاله وولده ، وكل ما يملك من مقومات الحياة فى سبيل الله .

ذلك أن هؤلاء المؤمـنين الأوائل ، هـم الذين سيـحملون الدعوة إلى الدنيا كلها .

ولتصل الدعوة طاهرة نقـية كما نزلت .. لابد ألا يكون فى صـدور هؤلاء المؤمنين الأوائل ذرة من الدنيـا ، إنهم سيفـتحون بلاد العالم ، وتُعْرض عليـهم الثروات ، وتُفتح لهم أبواب القصور .

لو كـان فى قلوبهم ذرة من حب الدنيـا مـالوا إليهـا ، وإذا مالوا ، ضاعت قضية الدين فى أول الدعوة .

ولذلك ؛ لو بدأ الإسـلام بأصـحـاب النفـوذ فى الدنيـا وأصحاب الأموال ، لآمن الناس نفـاقاً ورياء .. وتقرباً من أصحاب النفوذ والسلطان ، تماماً كما يحيط المنافقون بكل حاكم أو صاحب دنيا ، ولانصرفوا بعد ذلك عن الدين فى

أول أزمة ، كما ينصرف المنافقون من حول أى حاكم أو صاحب نفوذ إذا زال عنهم الجاه والسلطان .

فالله - سبحانه وتعالى - لا يريد لدينه أن يحمله المنافقون إلى أهل الأرض ؛ ليصبح سلعة تُباع وتُشترى ، وتتغير وتتبدل لمن يدفع الثمن ، لكنه يريد أن يحمل هذا الدين إلى الدنيا كلها .. صادقو الإيمان الذين لا يبيعون دينهم بدنياهم ، والذين يخافون الله أشد من خوفهم من الناس جميعاً فيقفون ليعلنوا كلمة الحق - دون رهبة أو خوف - ولا ينحرفون من أجل المال ومتاع الدنيا .

ولذلك كانت السنوات الأولى للإسلام سنوات تطهير واختبار للإيمان الصادق ، فلم يكن مَنْ يدخل هذا الدين ، ينال خيراً دنيوياً ، بل كان يدخله وفى قلبه ذلك الإيمان ، الذى يجعله يتحمل كل شىء فى سبيل إيمانه .. عقيدة صادقة فى القلوب .. هذا ما أراده الله سبحانه وتعالى .

ولم تكن العقيدة الصادقة بالقول فقط ، ولكنها كانت بالتجربة الإيمانية الصادقة ، فهناك فرق بين القول وبين الأداء ، القول سهل ، لكن التجربة العملية هى الامتحان الحقيقى للنفس البشرية .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ

يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [التوبة]

وهكذا كانت بداية الإسلام ، وما تعرَّض له المسلمون الأوائل من أنواع التعذيب والاضطهاد ، هى ما أراده الحق - تبارك وتعالى - لدينه ؛ ليطهر هذا الدين من المنافقين وضعاف الإيمان ، ولا يبقى فيه إلا أقوياء الإيمان المخلصون لدينهم .

وتحمَّل رسول الله ﷺ وتحمل المؤمنون الإيذاء بصبر ورضاء ، كانوا كلما واجهوا الصعاب ، وكلما تعرضوا للأذى .. ازدادوا التصاقاً بدينهم وإيماناً بربهم ، وكلما زاد الاضطهاد كان تمسكهم بالدين أقوى .

## وزاد جنون قريش

ولكن قريشاً كان يزداد جنونها كل يوم ، وذهبت إلى عبد المطلب عم رسول الله ﷺ تطلب منه أن يترك محمد - عليه الصلاة والسلام - الدعوة ، ودار حوار بين رسول الله ﷺ وعمه ، أعلن فيه الرسول ﷺ تمسكه الكامل بالدعوة ، واهتز أبو طالب من موقف ابن أخيه الذى كان قمة فى الإيمان ، وقال له : اذهب يا ابن أخى ، فقُلْ ما أحببت ، فو الله لا أُسلمك لشىء تكرهه أبداً .

وطلب أبو طالب منَ بنى هاشم وبنى عبد المطلب أن يمنعوا قريشاً عن رسول الله ﷺ فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب الذى كانت عداوته للإسلام ليس فوقها عداوة .

وهكذا كان رسول الله ﷺ وهو يتعرض لأقسى ما يتعرض له نبى ، يحتمى بقومه من أذى قريش ، وتأتى خديجة - رضى الله عنها - فتمسح عنه ما يلاقيه من عناء فى الدعوة إلى الله ، وأبو بكر يشترى العبيد الذين أسلموا ويعتقهم ، حتى ينجيهم من العذاب والموت .

وكان رسول الله ﷺ يتحمل الأذى وهو صابر ، يُلْقون القاذورات فى طريقه .. ويضعونها على ظهره وهو يصلى ، فيقابل كل هذا بكريم خلقه وعظيم سماحته .

وعندما اشتد الأذى على المسلمين أشار عليهم رسول

الله ﷺ أن يهاجروا إلى الحبشة هرباً من الظلم والطغيان .

وأسلم عمـــر بن الخطاب ، وأسلم حمـــزة بن عبـد المطلب ، وكـان كلاهما قـوياً مرهوباً ، ولأول مـرة صلى عمر بالمسلمين عند الكعبة ، بعد أن كانوا يؤدون صلاتهم فى شعـاب مكة ، خوفـاً من أذى قـريش ، وبدأ رســول الله ﷺ يدعو القبائل التى تأتى إلى مكة للحج ، أو للتبرك بالبيت الحرام ، أو للتجارة إلى الإسلام .

وأحسَّتْ قريش بالخطر الجسـيم الذى يتهددها ، فبدأوا يحاولون تشويه دعوة الرســول الكريم .. قالوا : ساحر .. سحر الناس . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن . ولكن كل هذه الدعاوى سقطت .

فلو كان رســول الله ﷺ ساحراً لَسَحر كفـار قريش ؛ لأن المســحور لا إرادة له مع الساحر ، ولو كـان ـ عليه الصلاة والســلام ـ شاعراً لاشــتهر بـالبلاغة فى حـياته ، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقُلْ بيـتاً من الشعر ، أو أحس الناس ببـلاغـتـه .. طوال أربعيـن سنة عاشـهـا معــهم ، ولو كـان ـ عليه الصـلاة والسلام ـ كـاهناً يأتى بالقرآن من عنده ، لتناقض مع نفسه ؛ لأن الإنسان ينسى مع السنين والزمن .

## وجاء مدد السماء

ولكن كل هذا لم يفلح ، واستمرت الدعوة في طريقها تنتشر وتنتشر ، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب يحمون محمداً من إيذاء قريش ، وكان لا بد من إجراء آخر ، حتى يتخلى بنو هاشم وبنو عبد المطلب عن حماية رسول الله ﷺ .

ماذا تفعل قريش ؟ قرروا مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب ، وكانت سنوات المقاطعة ، التى عانى فيها رسول الله ﷺ والمسلمون من الجوع حتى أكلوا ورق الشجر .

وكان صناديد قريش قد كتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة ، فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم ، ولا يُزوِّجونهم ، ولا يتزوجون منهم ، وعلّقوا هذا الكتاب داخل الكعبة .

واستمر الحصار حوالي ثلاث سنوات ، كانت قريش ترجو خلالها أن يتخلى بنو هاشم وبنو عبد المطلب عن محمد - عليه الصلاة والسلام - ويسلموه لهم ليفعلوا به ما يشاءون ، وسلط الله - سبحانه وتعالى - أرَضة الأرض ، فأكلت هذه الصحيفة ، فيما عدا كلمة ( باسمك اللهم ) التى بدأت بها ، وأبلغ الوحى رسول الله ﷺ بذلك ، فأبلغ عمه عبد المطلب الذى أبلغ كفار قريش ،

وانتهت هذه العملية بتمزيق الصحيفة .

ولكن ، هذا لم يكن النهاية ، فلم تمض شهور على تمزيق الصحيفة ، حتى فاجأت رسول الله ﷺ فاجعتان في عام واحد ، اهتزت لهما نفسه الشريفة ، مات عمه أبو طالب ، وماتت زوجته خديجة ، وسُمِّى هذا العام عام الحزن .. وبعد أن فقد رسول الله ﷺ حماية عمه وحنان زوجته ازداد إيذاء الكفار للمسلمين .

كما ازداد إيذاؤهم لرسول الله ﷺ الذى تحمّل فى صبر وجلَد .

وضاق الرسول الكريم بإيذاء قريش ، وضاق بعناد الكفار من أهل مكة ، فخرج وحيداً دون أن يخبر أحداً إلى الطائف ، يلتمس من أهلها ( بنى ثقيف ) النُّصْرة والمَنَعة ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ولكنهم استقبلوه أسوأ استقبال .

سلطوا عليه ﷺ سفهاءهم يسبُّونه ويرمونه بالحجارة ، حتى دميت قدماه الشريفتان ، والتجأ إلى بستان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وجلس فى ظل شجرة ، وقد بلغ منه الحزن مَبْلَغه ، وهو يرى ﷺ جحود خلق الله ، دعوته إلى دين الحق .

لم يكن أمامه إلا السماء ، تلك التى كلَّفته بالرسالة

يُبلِّغـها للناس ، فـقد استـنفد ﷺ كل أسـباب الأرض مع قـومـه ومع غيـرهم ، لكنه ﷺ قُـوبل بالإيذاء والجـحـود والنكران ، رفع رسـول الله ﷺ أمرهَ إلى السمـاء ، يشكو ظلم أهل الأرض ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« اللهم إليك أشكو ضـعف قـوتى وقلَّة حـيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين .. أنت رَبُّ المستضعفين ، وأنت ربى . إلى مَنْ تكلُنى . إلى بعيد يتـجهّمنى . أو إلى عدو ملَّكته أمـرى . إنَ لم يكُنْ بك علَىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى .. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقتْ له الظلمات ، وصلُح عليه أمـر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غـضـبك ، أو يحل علىَّ سـخطك . لك العُـتْـبَى حـتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وكـان لا بد من مـدد من السـمـاء يـأتى إلى رسـول الله ﷺ ؛ ليـؤكـد له : أنه إذا كـان أهل الأرض قـد تخلوا عنه ، فإن ربه سيحتفى به فى ملكوت السماء .

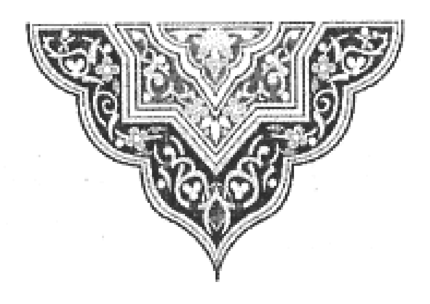
وعاد رسول الله ﷺ إلى مـكة وحيداً كما خـرج منها ، وعرفت قريش قـصة الطائف ، فاشتـد إيذاؤها لرسول الله ﷺ ومَنْ آمنوا معه .

وفى ليلة مبـاركة جاء مدد السـماء ، وحدثتْ المعـجزة « معجزة الإسراء والمعراج » .



## الفصل الثانى

# سبحان الذى أسرى



رســـول الله ﷺ تعـــرَّض لأذى كثير من المشركين والكفار ، وفى عام واحد ، هو عام الحزن ، ماتت زوجته خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكـانت سكناً له ، تداوى ما يلقـاه من مشقة فى سبيل الدعوة ، كما مات فى نفس العام عمه أبو طالب الذى كان حماية خارجية له يحميه من الأذى .

وذهب رســـول الله ـ عليـه الـصلاة والســـلام ـ إلى الطائف ، علَّـه يجـد هناك مَنْ يســمع كلـمـة الحق ويؤمن بدين الله ولكنـه بدلاً من ذلك وجـد الجـحــود والنكران ، وسلطوا عليه سفهاءهم فأسمعوه ما يؤذيه ، وسلطوا عليه الصبية فقـذفوه بالحجارة حتى أدموْا قدميـه الشريفتين ، والتجـأ إلى بستان هناك يلتـمس الحماية ، وجلس رافـعاً يديه إلى السماء ، مناجياً ربه لمَا يلقاه من أهل الأرض .

والله سبحانه وتعالى هو القائل لرسوله الكريم :

﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

وعاد رســـول الله ﷺ إلى مكة ، ولم يجد إلا المُـصْعب ابن عدى .. أحـد كفار مكة ليـجيره عند الدخـول ، كل ما تعرض له رســـول الله ﷺ كان قاسيـاً على النفس ، فأراد

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يلفت رسوله الكريم .. أنه إذا ضاقت عليه الأرض فإن ملكوت السماء يحتفى به ويرحب به ، وأن ربه ـ الذى كلفه بهذه الرسالة السامية ـ بلا شكٍّ سينصره رغم كل هذه الشدائد .

ومن هنا جاءت معجزة « الإسراء والمعراج » .

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن المعجزة .. فإننا لا بد أن نلتفت إلى بداية سورة الإسراء التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾
[العلق]

وبداية السورة بكلمة : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ .. معناه التنزيه أى : تنزيه الله عز وجل عن أن يكون له مثيل .. فى صفاته أو أفعاله .. وسبحان .. هى تنزيه مطلق لله عن أن يكون له شبيه فيما خلق : لا فى الذات ، ولا فى الصفات ، ولا فى الأفعال ـ فالله سبحانه وتعالى موجود .. وأنت موجود .. ولكن ، هل وجودك كوجود الله جل جلاله ؟

الله سبحانه وتعالى سميع .. وأنت لك سمع .. ولكن سمعك ليس كسمع الله .. الله سبحانه وتعالى له ذات وكيان .. وأنت لك ذات وكيان .. ولكن لا مقارنة .

# الفعـــل للـــه

من هنا ، فإنه إذا كـان لله فعل .. فـلا يمكن أن يقارن بأفعـال البشـر .. بل إن فعْل الله خارج عـن نطاق قدرات البشـر ، وفـوق طاقـة عَـقـولهم ؛ ولـذلك إذا فـعل الله ـ سبحـانه وتعالى ـ شيئاً .. فلا تسـأل كيف ؟ لأن طاقة عقلك لا يمكن أن تدرك أسرار الفعل ؛ ولأن الله ـ سبحانه وتعـالى ـ يفـعل ما يشـاء .. لا تحـدّه قـوانين ؛ لأنه هو خالق القوانين ، ولا يـحتاج إلى أسباب ؛ لأنه ـ سـبحانه وتعالى ـ هو الذى أوجد الأسباب .

فـالله ليس كـمثله شىء ، وكـل مخلوقـات الله تخـضع لمشيئته جل جـلاله ، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يخضع لمشـيئة أحـد من خلقه ؛ لأن ذاته وصـفاته وأفعـاله فوق كونه كله ؛ ولذلك فإن آيات الله لا تخضع لقوانين الكون .

ولقد أعطانا ـ سبحانه وتعالى ـ أمثلة كثيرة على ذلك ، وأبطل قوانين الكـون لرسله وأنبيائه ؛ ليـعطيهم معـجزات تؤكد صدق بلاغهم عن الله .

فالنار خـاصيتهـا الإحراق ، ولكن عندما أمـسك الكفار بإبراهيم ـ عليـه السلام ـ ليـحرقوه فى النار ، لـم يجعل الله سبـحانه وتـعالى إبراهيم يفلت منهم ، أو يـخفيـه عن أعينهم ، أو ينزل المطر لتـنطفىء النار ، ولو فعل الله هذا

لقال الكفار : لو لم يختف إبراهيم عن أعيننا لأحرقناه ، ولو لم ينزل المطر لأكلت النار جسد إبراهيم .

ولكن الله تعالتْ حكمته جعل الكفار يمسكون بإبراهيم ، وجعل النار مشتعلة متأججة ، وألقى الكفار إبراهيم عليه السلام فى النار ، وكانت كل العقول والأسباب تقول : إن إبراهيم سيحترق ، ولكن خالق النار وموجدها قال :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

وهكذا ، سلب الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاصية الإحراق عن النار ، ولا أحد يستطيع أن يقول : كيف ؟ ولا أن يسأل هذا السؤال ، ولن يصل أحد إلى جواب مهما بحث ، لأن هذا فعْل الله ، معجزة أرادها أن تكون فوق مستوى العقول والفكر البشرى إلى يوم القيامة .

وعندما كان موسى ـ عليه السلام ـ وأتباعه يفرون من فرعون وجنوده ، وفرعون يلاحقهم بجيشه ، ورأى أتباع موسى البحر أمامهم ، وجيش فرعون وراءهم ، ماذا قال أتباع موسى ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

وكان هذا هو المنطق والعقل ، ولكن موسى عليه

السلام وهو نبى ، يدرك أنه مُرْسَل من رب الأسباب ؛ لذلك فإن الأسباب لا تحكمه ، وعندها قال موسى كما يروى لنا الحق :

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

ثقةً فى الله سبحانه وتعالى ، أنه لن يتخلى عن نبيه ، وفعلاً جاء مدد السماء ، وإذا بالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يوحى لموسى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

وهكذا كان موسى ـ عليه السلام ـ على يقين .. أنه إذا تخلت عنه أسباب الأرض ، فلن يتخلى عنه رب هذه الأسباب ، ومنذ حدثت المعجزة وحتى يوم القيامة .. لن يستطيع بشر أن يضرب البحر بالعصا فينشق .. وعيسى عليه السلام حين أحيا الموتى بإذن الله .. وشفى الأبرص .. كانت معجزة من خالق الأسباب ، ولن يستطيع بشر أن يحيى ميتاً .. أو يشفى مريضاً بمجرد الإشارة .

كل هذه الأفعال ليس فيها كيف ؟ لأنها لا تُنسب لأصحابها ، ولكنها تنسب إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك تجد كلمة ﴿ سبحان ﴾ تأتى فى القرآن الكريم فى الأشياء التى تقف فيها العقول ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

هل يستطيع أحد أن يصل إلى سر الخلق ؟ مستحيل ذلك .. سواء كان الخَلْق مباشراً من الله ، أو بالأسباب من الذكر والأنثى ، فإن سر الحياة لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تجد أن الإنسان قد كشف الله له من علمه ما جعله يصنع الكثير فى الكون ، يصنع الصواريخ ، ويصل إلى القمر ، والعقول الألكترونية تشغل المصانع بأكملها ، وما يطلقون عليه الإنسان الآلى .

ولكن كل هذه الأشياء تبقى عند درجة صناعتها .. بلا حياة ، فلا هى تنمو ، ولا هى تتكاثر ، بل تقف عند ما صُنعت منه ، فى نفس الحجم الذى صُنعت عليه ، وبنفس الهيئة ، ولن يصل أحد من البشر إلى أن يصنع من شىء ما ذكراً أو أنثى يتزاوجان ، أو ينمو ويكبر مع السنين .

فكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يسبق كلامه بكلمة ﴿ سبحان ﴾ فإنه يخبرنا بأن العقول البشرية ستقف عند هذا ولا تستطيع أن تتجاوزه .

# معنى « سبحان »

وكلمة ( سبحان ) لم ترد فى القرآن الكريم إلا عند ذكر الأشياء العجيبة المعجزة ، لذلك حين تسمعها فى كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا بد أن تعرف أن هذا تنزيه لله ، بأن الفعل الذى تَمَّ لا يقدر على فعله إلا الله جل جلاله .

و ﴿ سبحان ﴾ اسم .. وكل اسم لله يدل على الثبوت وعلى الدوام ، فكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مُنزَّه قبل أن يخلق من ينزهه ، فإذا قرأنا قول الحق فى القرآن الكريم :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء]

نقول : إن الله أرادنا أن نعرف أن معجزة الإسراء والمعراج من فعْل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولم تتم بقوة رسول الله ﷺ البشرية ؛ ولذلك بدأ السورة الكريمة بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ① ﴾ [الإسراء] أى : أن كل ما سيأتى بعد ذلك منسوب لقدرة الله سبحانه وتعالى .

وأحداث الفعل تختلف بالنسبة للفاعل وتتناسب معه ، فإذا قلت : إن طفلاً ضربنى بأقصى قوته .. تختلف كثيراً عمّا يحدث ، إذا قلت : إن بطل الملاكمة فى العالم ضربنى بكل قوته ، الفعل واحد وهو : ضربنى بكل قوته ، ولكن

الفاعل مختلف ، هذا طفل صغير ، وهذا بطل العالم فى الملاكمة .

وإذا قلت : إن فلاناً الموظف البسيط أقام حفل عرس لابنته ، وقلت إن أغنى رجل فى العالم أقام عرساً لابنته ، الفعل واحد وهو حفل العُرْس ، ولكن القدرة مختلفة ، ولذلك فإن الأول تجده حفلاً بسيطاً ، والثانى تجده حفلاً هائلاً .

وإذا قلت : إننى سافرت إلى الأسكندرية بالقطار .. وقلت : إننى سافرت إليها بالطائرة .. وقلت : إننى سافرت إليها بصاروخ .. الفعل واحد .. ولكن قوة الفعل تختلف ، ولذلك فإن الرحلة بالقطار تستغرق ساعات ، وبالطائرة نصف ساعة ، وبالصاروخ دقيقة .

إذن : فالفعل يتناسب دائماً مع قدرة فاعله ، فإذا قال سبحانه وتعالى : إنه هو الذى أسرى برسوله ﷺ يكون كل ما فى الرحلة مما هو فوق قدرة العقول يمكن أن يحدث .

ولذلك حين قال العرب ـ والرسول يروى ما حدث له فى الإسراء والمعراج : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ كان سؤالهم دليلاً على أنهم لم يفهموا المعجزة ، فرسول الله ﷺ لم يَقُلْ :

سَرَيْتُ .. وإنما قال : أُسْرِىَ بى .. ومَنِ الذى أَسْرَىَ به ؟ الله سبحانه وتعالى .

ولذلك عندما نسبوا الفعل لقدرة البشر ، نسوا قدرة الله سبحانه وتعالى ، ونسوا أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقل : سريت إلى بيت المقدس ، ولكنه قال : أُسْرِى بى ، وكان يجب أن يتنبهوا إلى قدرة الفاعل عندما يتحدثون ويقارنون المعجزة بقدراتهم البشرية .

## الإسراء بالروح والجسد

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] ولم يقل برسوله ، ولله جل جلاله في كونه عبيد وعباد ، كلنا عبيد الله ، الطائع فينا والعاصي ، والمؤمن فينا والكافر ، والعياذ بالله ، ولكن عباد الله هم الذين أخلصوا له ، فاتحد اختيارهم مع منهج الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما قال لهم افعلوه فعلوه ، وما نهاهم عنه انتهوا .

ولذلك نجد في القرآن الكريم ، عندما يريد الله أن يتحدث عن المخلصين من خَلْقه .. لا يسميهم عبيداً ، ولكن يسميهم عباداً .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

نقول : إن الله ـ جل جلاله ـ قد استخدم كلمة ﴿ عبده ﴾ .. ليلفتنا إلى حقيقتين هامتين : الحقيقة الأولى .. أن الإسراء تم بالروح والجسد .. ولم يكن مناماً .. ولكنه كان رؤية حقيقية .. فكلمة عبد لا تُطلَق إلا عند التقاء الروح والجسد .

ولقد دار النقاش مع أولئك الذين استمعوا إلى رسول

الله ﷺ وهو يروى لهم ما حدث فى الإسراء ، على أساس أنه تَمَّ بالروح والجسد .. وإلا ما كانوا ناقشوا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما حدث ، فلو أن الإسراء كان مناماً ـ كما يدّعى بعض الناس ـ ما كان هناك مجال للنقاش ، وهل يُناقَش النائم فيما يراه ؟

إنك إن قلت : إننى ذهبتُ إلى أمريكا وعُدْت إلى مصر .. عشرين مرة فى ليلة واحدة : هل يكذبك أحد فى منامك ؟ طبعاً لا ، فما يحدث فى المنام لا يخضع لنقاش العقل ، ولا يخضع لمنطق الأحداث ، فمثلاً الملك فى عهد يوسف عليه السلام : ماذا رأى فى المنام؟

يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة يوسف :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

هل هذا كلام يتفق مع العقل والمنطق ؟ وهل يأكل البقر بعضه بعضاً ؟ مَنْ منَّا رأى بقرة تأكل بقرة أخرى ؟ طبعاً هذا لم يحدث ، ولو أن هذا كان قابلاً للحدوث .. أيأكل البقر الهزيل الضعيف البقر القوى السمين ؟ أم أن العكس هو الذى يتفق مع المنطق ، ولكن لا أحد منا رأى بقرة تأكل بقرة .

ومع ذلك عندما حكى الملك منامه لوزرائه وبطانته ، وطلب منهم أن يُفتوه فيه ، هل ناقشه أحد منهم عقلياً .. وقال له : كيف يأكل البقر بعضه بعضاً .. إن هذا لا يمكن أن يحدث ، لم يناقشوه .. لأن الأحلام لا تُناقش بالعقل والمنطق ، ولا تخضع لأسباب البشر .

ولكنهم قالوا كما يروى الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ [يوسف]

إذن : لم يَدُرْ نقاش إطلاقاً .. حول الرؤيا التى رآها الملك فى المنام .. ولا أى نوع من أنواع المجادلة العقلية ، ولكن فى معجزة الإسراء دار نقاش .. وقالوا : كيف يمكن أن تأتيها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟

إذن : النقاش يدل على أن رسول الله ﷺ أخبرهم أن الإسراء تَمَّ بالروح والجسد ، وجاء قول الحق جل جلاله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] ليؤكد أن الإسراء تَمَّ بالروح والجسد .

## العبد .. والرسول

هذه واحدة .. أما الثانية .. فهى أن الله جل جلاله يريد أن يثبت لنا أن العبـودية له هى أسمى المراتب التى يصل إليها الإنســان ، فالعبودية لله عزة مـا بعدها عزة ، وعطاء مـا بعده عطاء ، وإذا قـرأنا فى ســورة الكهف نجد قــول الحق جل جلاله :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾ [الكهف]

ونحن نعلم أن مــوسى رســول الله وكليــمــه ، وأن الله كلَّم موسى ، ومع ذلك فقد كـان هناك عبد من عباد الله .. أعلم من موسى عليه السلام واتبعه ليأخذ منه ، أو ليتعلم عنه .

إذن : فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يلفتنا إلى أن العــبوديــة له هى أعلى الدرجـات ، بدليل أنه ـ ســبحــانه وتعالى ـ ذكر لنا فى سورة الكهف قصة موسى والخضر عليهما السلام ، ولم يكن رسولاً ، ولكنه كان عبداً ، فنال منزلة عالية عند الله ـ سبــحانه وتعالى ـ وأنزل الحق جل جلاله عليــه من فيوضــات علمه ما لم يـنزله على موسى عليه السلام .

إذن : فقـول الحق سبحـانه وتعالى : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴾ (١) [الإسراء] .. وكلمة ﴿ عـبده ﴾ هى حيثـية الإسراء .. تقول : إن الحق سـبحانه وتعالى أراد بهـا أن الإسراء تم بالروح والجـسد ، وأن منـزلة العبـودية لله سـبحـانه هى منزلة عالية جداً .

ذلك أن العبودية لله شرف ، فالعبـودية للبشرية نقيصة وذلة ؛ لأن السيـد يريد أن يأخذ خير عـبده ، وأن يجرده من كل حقوقه وماله ، ولكن العبودية لله عطاء .

وقديماً قال الشاعر :

حَسْبُ نَفْسِى عِزاً بأنِّى عَـبْدٌ
يحـتَفِى بِى بِلاَ مَـوَاعِـيدَ رَبُّ
هُوَ فِـى قُـدْسِـه الأعَـزِّ ولَـكِنْ
أَنَـا أَلْقَـى مَـتَـى وأَيْنَ أُحِـبَّ

والله ـ سبحـانه وتعالى ـ يريد أن نعلم أن هذه المنزلة الخصوصية لمحمد ﷺ ؛ لأنه عبد ، وهذا هو أعلى مراتب الشرف والعطاء من الله .

إذن : فـقـد عـرفنا يـقـيناً .. أن الإسـراء تَمَّ بالروح والجسد ، وكـل النقاش الذى دار حول معـجزة الإسراء ، وكيـف أن رسول الله ﷺ أتاها فى ليلة .. وهم يضـربون إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا النقاش يعنى أن الإسراء كان

بالجسد ، وإلا ما كانوا كذّبوا رسول الله ﷺ .. لو أن الإسراء كان مناماً .. أو بالروح فقط .. كما يدعى بعض ضعاف الإيمان .

والذين يحاولون أن يُشكّكوا فى هذه المعجزة .. نكون بذلك قد انتهينا .. من أن الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تم بقوة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته ، وهذه القوة والمقدرة فوق العقول .. ونكون أيضاً قد بيّنا أن الإسراء تَمَّ بالروح والجسد .. مصداقاً لقوله تعالى ﴿ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾[الإسراء] وأن العبودية لله هى أشرف المراتب ، وأعلاها وأقربها إلى الله ، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفيض من أسرار ملكوته على عباده المخلصين .

إلى هنا ويبرز سؤالان هامان : السؤال الأول : لماذا تم الإسراء ليلاً ؟.. والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾[الإسراء] .. ولماذا لم يتم الإسراء نهاراً ، ويرى الجميع بأعينهم ؟

رسول الله ﷺ وهو يركب الدابة التى أتى له بها جبريل ـ عليه السلام ـ وهى البراق ويشقّ بها عنان السماء .. ألم يكن هذا أقوى بالنسبة للمعجزة ، بحيث يراها الناس فى وضح النهار ، كما رأى أتباع إبراهيم النار وهى لا تحرقه ، وكما رأى أتباع موسى البحر وهو

ينشق ؟ ألم يكن الإسراء نهاراً هو تأكيد للمعجزة فلا يكذبها أحد ، ولا يثور حولها ذلك الجدل الذى ثار من ضعاف الإيمان .

هذه واحدة .. أما الثانية .. فإذا كانت المعجزة منسوبة إلى قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقوته ، فلم أخذت ليلة أو جزءاً من الليلة ؟ ألم يكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادراً على أن ينقل رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى لحظة أو أقل من لحظة ؟ ثم يعيده أيضاً فى لحظة ؟

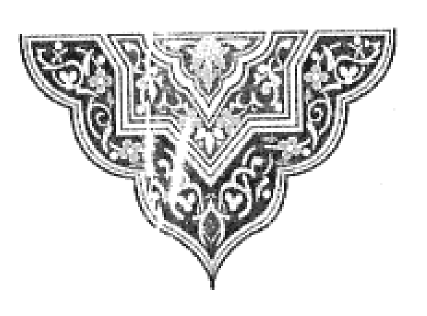
وكيف تأخذ المعجزة زمناً ، وهى بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى لا زمن عنده ، ما دام الفعل من الله جل جلاله ؟ فهل يحتاج الله إلى وقت ليتم معجزته ؟

كل هذه الأسئلة طُرِحَتْ وقيلت من المستشرقين .. وكانوا يحسبون بذلك أنهم يهدمون المعجزة ، ولكن أسئلتهم هذه بينتْ نواحى الإعجاز فى الإسراء والمعراج ، تلك النواحى التى ربما لم يكن أحد يتنبه لها لو أن هؤلاء المستشرقين لم يشككوا فى الإسلام ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يسخر عبده غير المؤمن لخدمة دين الحق ، وليعرف الناس دواعى العظمة فى هذا الدين .



# الفصل الثالث

# لماذا كانت غيباً؟!



قبل أن نمضى فى حديث الإسراء والمعراج .. فهناك سؤالان هامان لا بد من الإجابة عليهما .. السؤال الأول : لماذا تم الإسراء ليلاً ؟ ولم يتم فى وضح النهار .. والسؤال الثانى : لماذا أخذ الإسراء زمناً ؟ والله لا زمن عنده .

حادثة الإسراء بدأت عندما كان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - نائماً فى الكعبة .. وقيل : فى بيته .. وقيل : فى بيت أم هانىء .. وكل الروايات صحيحة ؛ لأن رؤيا الأنبياء صادقة .. وتثبيت الأنبياء قبل المعجزات يأتى من الله سبحانه وتعالى ، حتى لا يفاجأ الرسول بالمعجزة .

فمثلاً موسى عليه السلام .. أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يرسله إلى فرعون ، والله - تبارك وتعالى - يعلم أن موسى سيواجه سحرة فرعون ؛ لذلك أراد الحق جل جلاله قبل أن يُلقى موسى عصاه .. فتتحول إلى حية تلقف حبال السحرة .. أراد الله - جل جلاله - أن يدرب موسى عليه السلام على هذه التجربة ، حتى إذا واجه السحرة وألقى عصاه فتحولتْ إلى حية لا ينزعج ولا تأخذه المفاجأة فيخاف .

ولكن الله أراد لموسى أن يكون ثابتاً وقت المعجزة ؛ ولذلك فإن الحق - سبحانه وتعالى - دربه عليها ، فلما كان موسى عائداً إلى مصر مع زوجته رأى ناراً فذهب ليأتى بجذوة من النار ، يتدفأ بها هو وزوجته ؛ لأن الليل فى شتاء الصحراء يكون شديد البرودة ، وحينئذ كلَّمه الحق - سبحانه وتعالى - فماذا قال له ؟ قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ..(١٨)﴾ [طه]

والسؤال هنا يثير الاستغراب فى النفس .. والله سبحانه وتعالى حينما يسأل موسى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه] هل لا يعرف الحق - جل جلاله - أن ما فى يمين موسى هى عصا ؟ نعم يعرف ، ولكن هذا ليس هو الهدف من السؤال ، إنما يهدف إلى أن يتأكد موسى يقيناً أن ما فى يمينه هى العصا ، حتى إذا تغيرت صورتها إلى هيئة أخرى ، لا يهزه الحدث ، بل يتأكد من هذه معجزة من الله ، وإذا رآها تحدث أمامه مرة ، ثبت فى المرة الثانية .

ولذلك قال له الحق جل جلاله :

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾[طه]

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يمر موسى

بتجربة تحوُّل العصا إلى حية ، حتى إذا وقع هذا أمام فرعون والسحرة ، فإن موسى لا يخاف وينزعج ، ولقد خاف موسى أثناء التجربة .. دخل الخوف إلى نفسه .. وهو يرى العصا تتحول إلى حية ، فثبَّته الحق - سبحانه وتعالى - وقال :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

وذلك حتى لا يخاف موسى أمام فرعون والسحرة .. ويلتقط الحية وهو واثق أنها ستتحول مرة أخرى إلى عصا .. بل إن التجربة تعدَّتْ ذلك .. إنها أخذت أكثر من شكل .

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) ﴾ [القصص]

وهكذا نرى أن العصا خلال التجربة .. أخذت مرة شكل حية .. ومرة شكل جان .. وأن موسى خاف .. وجرى بعيداً من المفاجأة .. وكان هذا أثناء التجربة .. ولكن عندما تمَّتْ المعجزة أمام السحرة وفرعون .. كان موسى ثابتاً .. وهكذا فإن الحق - سبحانه وتعالى - فى المعجزات يُثبِّت انتباهه بتجربة تحدث قبل المعجزة .

## رؤيا الرسول تتحقق

ورسـول الله ﷺ .. ألم يبشر بفتح مكة ؟ وأراه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في رؤيا أخبر بها أصحابه .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .. (٢٧) ﴾ [الفتح]

وهكذا كانت الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ .. وحَدَّثَ بها أصحابه أنهم سيدخلون المسجد الحرام .. إذن : فهناك شيء اسمه رؤيا الإيناس .. وهي أن يرى النبي الشيء مناماً أو يقظة ، حتى إذا ما أصبح حقيقة كان له أُنْس به وإلْف به ، وكان رسول الله ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح .. ما يراه مناماً لا بد أن يتحقق ويصبح واقعاً .

فمن قال : إن الإسراء رؤيا منامية .. نقول له : إنها رؤيا الإيناس أولاً .. ورؤيا التذكير بالنعمة ثانياً .. وواقع الحادث ثالثاً .

وبذلك نخرج من كل الروايات المختلفة .. حتى الروايات التي تذكر أن رسول الله ﷺ أُسْرِىَ به من بيت أم هانيء .. والتي تقول : إنه أُسْرِىَ به من بيته .. والتي تقول : إنه أُسْرِىَ به من المسجدَ الحرام .. نخرج منها

بنفس الفهم .. فقد جاءته الرؤيا مرة وهو عند أم هانيء .. وجاءته مرة وهو فى بيته .. ومرة حقيقة واقعة وهو فى المسجد الحرام .. فلا تضارب بين الروايات المختلفة .. ولا بين رؤيا التثبيت والإيناس ورؤيا الواقع .. وأم هانيء ابنة عمة رسول الله ﷺ .. وكان بيتها قريباً من الكعبة .

ولكن الحقيقة أن رسول الله ﷺ قد أُسْرِىَ به من المسجد الحرام ، هذا هو إسراء الواقع ، وأن الإسراء تَمَّ بالروح والجسد ، وإنْ كان ذلك لا يمنع أن رسول الله ﷺ قد تعرض لحدث الإسراء مناماً .. وتعرض له روحاً ، وتعرض له يقظة وواقعاً .. على أن بعض الناس لا يزالون يجادلون .. فى أن الإسراء لم يتم بالروح والجسد .. وهم يستخدمون فى ذلك النص القرآنى الشريف فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

ويقولون ﴿ الرؤيا ﴾ لا تستخدم إلا لما يُرى فى المنام ، أما ما يُرىَ فى اليقظة ، فإننا نقول عنه « رؤية » .. نقول : إذا كان المقصود هنا رؤيا منامية .. فكيف تكون فتنة للناس ؟ يُصدِّقها بعضهم ويُكذِّبها بعضهم ، لو كانت رؤيا

منامية .. فلا يمكن أن يناقشها أحد تصديقاً أو تكذيباً كما بيَنا ، ونحن لا يجب أن نأخذ بالشائع على ألسنة الناس .

ولكننا إذا عدنا للغة العربية قبل أن ينزل القرآن .. نجد أن كلمة ﴿ الرؤيا ﴾ وردت أيضاً للبصر .. وذكرت كذلك في كثير من قصائد الشعر لفحول الشعراء العرب .. والفرق الوحيد أنهم كانوا يستخدمون كلمة ﴿ الرؤيا ﴾ في البصر .. عندما يتحدثون عن الأشياء الغريبة التي تشبه الحلم .. فإذا استخدمنا ﴿ رؤيا ﴾ بمعنى المشاهدة بالبصر .. فهذا لا يتم إلا إذا رأينا أمامنا أمراً عجيباً .. وإلا لو كانت الرؤيا منامية ، ما كانت فتنة للناس ، فلا أحد يناقش الأحلام كذباً أو صدقاً ، ولا تكون الرؤيا أبداً فتنة .

## وجاء جبريل ..

رسول الله ﷺ جاءه جبريل وهو نائم في الكعبة وأيقظه .. ثم أُتِيَ له ﷺ بالبراق .. وهو دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل .. فركبها حتى أتى بيت المقدس، فربطت الدابة في الحلقة التي يربط بها الأنبياء دوابهم .

ثم دخل رسول الله ﷺ المسجد، فصلى فيه إماماً بالأنبياء، وعندما خرج أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار اللبن، فقال جبريل : أصبتَ الفطرة .

هنا يأتي السؤال الأول .. وهو :

لماذا وقعت حادثة الإسراء والمعراج ليلاً ؟ ما دام الإسراء قد حدث بقدرة الله مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ① ﴾ [الإسراء] إذن : فالفعل منسوب لله تبارك وتعالى .

لماذا لم تقع المعجزة نهاراً ؟ لماذا لم يأت الله - سبحانه وتعالى - بالبراق في وضح النهار .. ويستقله رسول الله ﷺ أمام الناس جميعاً .. ويصعد به إلى السماء أمامهم، حتى لا يوجد مَنْ يُكذِّب هذه الواقعة أو يجادل فيها ؟

# معجزة غيبية .. لماذا ؟

معجزات الأنبياء .. حدثت كلها أمام أقوامهم ، فإبراهيم عليه السلام أُلقِى فى النار .. وقومه يشاهدون ، وموسى عليه السلام انشق له البحر أمام قومه .. وعيسى عليه السلام حدثت معجزاته وشاهدها الناس جميعاً .. فلماذا لم تتم معجزة الإسراء بهذه الكيفية .. واختار الله أن تتم ليلاً ودون أن يشهدها أحد .. نقول : إنك لم تفهم الحكمة من المعجزة .. فرسول الله ﷺ يأتيه الوحى بالقرآن الكريم خفية .. أى : لا يشهد أحد جبريل عليه السلام وهو ينزل بالقرآن على رسول الله ﷺ .

إذن : المسألة المطروحة هنا مسألة إيمانية .. أى : إخبار بغيب .. وليست مسألة مشاهدة .. ورسول الله ﷺ له معجزات حسية كثيرة : نَبْع الماء من بين أصابعه الشريفة .. وظلَّلَه الغمام .. ووضع يده فى طعام قليل فكفى جيشاً بأكمله .. وطلب الكفار منه أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يشق لهم القمر فدعا الله وانشق القمر كآية .. وغير ذلك من المعجزات الحسية .

فهل آمن الكفار عندما رأوا هذه المعجزات ؟ لم يؤمنوا

وقالوا : ساحر سحر أعين الناس ، والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

وهكذا نرى أن الآيات الكونية لم تجعل الناس يؤمنون ، بل أخذوا يُفسِّرونها حَسْبَ أهوائهم ، فثمود قوم صالح مثلاً طلبوا من نبيهم أن يُخرِج لهم من الصخرة ناقة ، فلما استجاب لهم الله لم يؤمنوا وعقروها .

وموسى عليه السلام حينما انشق له البحر بعصاه ، وعبره بنو إسرائيل ، وشاهدوا فرعون وجنوده وهم يغرقون ، كان أول شيء فعلوه .. أنهم وجدوا قوماً بعد العبور مباشرة ، يعبدون الأصنام فعبدوها !

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نرى أن المعجزة التى تمت لبنى إسرائيل ..بأن شق الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم البحر ، وجعلهم يعبرون ، معجزة كبرى تمت أمام أعينهم ، ومع ذلك لم يمضِ إلا وقت قصير لا يزيد على ساعة أو ساعات ،

وإذا بهم ينسون الله ، الذى حقق لهم المعجزة الكبرى ، وأنجاهم من فرعون وجنوده .. ينسون الله ويطلبون من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها .. إذن : المعجزات التى خَصَّ بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنبياءه لم تجعل إلا قليلاً من الناس يؤمنون .

ولذلك عندما طلب الكفار من رسول الله ﷺ معجزات حددوها ، لم يحققها لهم الله ؛ لأن تاريخ البشرية ومَنْ سبقوهم كذَّبوا بالمعجزات الحسية رغم أنهم رأوها ، كما أن المعجزات الحسية مقصود بها الذين رأوْها ، فمَنْ لم يرهَا غير مطالب بها ولا هو مقصود بها .

ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن تكون معجزة الإسراء .. دليلاً إيمانياً يبقى إلى يوم القيامة ؛ لأن رسالة رسول الله ﷺ باقية إلى يوم القيامة ، فجعلها غيباً عليه دليل مادى .. حتى تناقش بالعقل ، وتكون مدخلاً للإيمان ؛ لأن الإيمان ليست أداته الرؤية ، فليس بعد العين أين ، ولكنه يتم بالدليل العقلى ، على أن ما هو غيب حدث فعلاً .

ووجود الشىء مختلف عن إدراك وجوده ، وذلك واضح بالدليل العقلى ، فنحن مثلاً لم نَرَ الجراثيم إلا

حديثاً ، ولكنها كانت موجودة منذ بداية الخلق ، وعدم علْمنا بها لم يبطل مهمتها فى الكون .

ومن هذا الدليل العقلى وغيره من الأدلة عن أشياء كانت موجودة فى الكون ، ثم كشفها الله لنا فعرفناها ، مثل خصائص الغلاف الجوى ، أو الكواكب التى نكتشف منها المزيد مع مرور الزمن أو غير ذلك ، من هذا أقمنا الدليل العقلى على أن ما هو غيب عنا موجود وإنْ لم ندركه .

## المعجزة .. ودليل العقل

الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يعطينا - بمعجزة الإسراء - دليلاً على أن رسول الله ﷺ صادق فيما يبلغنا به من منهج يوحى إليه من السماء ؛ ولذلك كانت المعجزة غيباً وقام عليها الدليل العقلى ، فلو أن المعجزة تمت نهاراً .. ورأى الناس رسول الله ﷺ وهو يصعد إلى السماء على البراق .. لقالوا : إنما سحرت أبصارنا .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يلفتنا الحق - سبحانه وتعالى - إلى أنه لو أنزل صحيفة من السماء ، فلمسها الناس بأيديهم .. لقالوا : إنها سحر وليست حقيقة ، فهذا هو السلوك البشرى ، والله أعلم بخلقه .

ولذلك لم تكن المعجزة الحسية تفيد فى أن يصدقوا أن رسول الله ﷺ قد أُسرى به ، ولكن الذى يبقى هو أن تكون المعجزة غيباً وعليها دليل عقلى .. لتؤكد صدق رسول الله ﷺ فيما يُوحَى إليه .

وهذا ما حدث .. المعجزة تمت غيباً ، ولكن عليها أكثر من دليل عقلى ، فلما أخبر رسول الله ﷺ قريشاً بما

حدث ، كان أول ما قالوه : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. وأنت تدعى أنك أتيتها فى ليلة واحدة .. أى : أن الرحلة بين مكة وبيت المقدس كانت تستغرق منهم شهراً كاملاً .. ورسول الله ﷺ يقول إنه ذهب وعاد فى ليلة واحدة .

وكان الرد العقلى على ذلك أن الله هو الذى أسرى برسوله ، ومحمد - عليه الصلاة والسلام - لم يدَّعِ أنه هو الذى أسرى بنفسه ، إذن : القدرة هنا منسوبة لله جل جلاله .

والدليل العقلى الثانى : أنهم قالوا لرسول الله ﷺ : صفْ لنا المسجد الأقصى وقال رجل منهم : أنا أعلم النَاس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وهيئته ؟ فرفع الله - سبحانه وتعالى - المسجد الأقصى إلى رسول الله ﷺ .. فقال : بناؤه كذا وكذا .. وأخذ يصفه وصفاً دقيقاً أذهل الحاضرين .

وهنا لنا وقفة ، فلو كانت قريش تعلم أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - قد سافر إلى بيت المقدس ، ولو مرة واحدة ما سألوه هذا السؤال ، ولكنهم كانوا على يقين ، أنه لم يذهب إلى المسجد الأقصى فى حياته ، ولكنهم طلبوا أن يصفه لهم كنوع من التعجيز ،

وقـالت له قـــريش : صفْ لنا مـاذا رأيـت فى الطريق .. فقال : إنى مررت بقافلة لكم فى مكان كذا ، وأن جملاً قد ضلَّ منهم ، وأن القافلة يتقدمــها جمل لونه أسود ، وأنها ستصل إلى مكة فى شروق يوم كـذا ، فخرجوا ينتظرون وصــول القــافلة ، ليـعـرفوا إذا كـان رســول الله ﷺ قـد صدَقــهم القــول أم لا .. انتظروا طول الليل حتى أشــرقت الشمس ، فـصـاح أحـدهم : الشمس أشرقـت .. وردَّ عليه آخـر : والقافلة وصلت .. وكـان يتقـدمهـا الجمل الأســود الذى وصفه لهم رسول الله ﷺ .

## الذين ارتدوا ..

كل هذه كانت أدلة مادية عقلية .. على أن المعجزة قد حدثتْ ، وأن رسول الله ﷺ قد أُسْرِىَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقد فتن بعض المسلمين ولم يُصدّقوا ، وانطلقوا إلى أبى بكر - رضى الله عنه - وقالوا له : إن صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة .. فقال أبو بكر : أو قال هذا ؟ قالوا : نعم .. قال أبو بكر : ما دام قال فقد صدق .

وعندما أبدى المسلمون دهشتهم .. قال أبو بكر - رضى الله عنه : أنُصدّقه فى خبر السماء ونُكذّبه فى هذا ؟ وكان هذا القول من أبى بكر هو توضيح لحكمة الإسراء ، ذلك أن رسول الله ﷺ الذى يأتيهم بالقرآن ، الذى ينزل به جبريل عليه والوحى غَيْب عنهم ، كان يجب أن يُصدّقوه فى معجزة غيبية حدثتْ له ، أقام عليها الدليل العقلى والمادى ، فيعرفون أنه صادق ، وأن رسالته هى رسالة الحق .

وهذا يبين لنا .. لماذا كانت معجزة الإسراء غيباً عن الناس ؟ ولماذا لم تحدث فى وضح النهار ؟ وكان المفروض بعد هذه الأدلة المادية التى قدمها رسول

الله ﷺ ؛ لتؤكد أنه أُسْرى به ، كان المفروض لكل إنسان له عقل أن يزداد إيمانًا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولكن الذين ارتدوا بعد إسلامهم عندما أخبرهم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما حدث كانوا ضعاف الإيمان ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكُنْ يريد فى أول الدعوة .. أن يحملها ضعاف الإيمان ، بل كان جل جلاله يريد رجالاً أقوياء الإيمان يحملون دينه إلى الدنيا كلها ، لا يهتزون أمام الترف الدنيوى ، الذى سيقابلونه فى أرض ستفتح لهم كفارس والروم ، ولكى يكون الإيمان فى قلوبهم أكبر مما تستطيع الدنيا كلها أن تعطيه .

## وحققت المعجزة هدفين

وهكذا حققت المعجزة هدفين ، أقامت الدليل العقلى والمادى على أن كل ما يخبرنا رسول الله ﷺ عنه ، هو صدق ولو كان غيباً عنا ، وخلصت الإسلام من ضعفاء الإيمان ، الذين لو كانوا قد استمروا على إسلامهم لأصابوا هذا الدين بالضرر البليغ ولم ينفعوه بشىء .

بقى بعد ذلك السؤال الثانى وهو : الله سبحانه وتعالى لا زمن عنده ، فلماذا استغرقت معجزة الإسراء زمناً ؟ ألم يكن الحق جل جلاله قادراً على أن يُسْرِىَ برسوله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى لحظة .. نقول : إنه جل جلاله كان قادراً على ذلك ، ولكن لا بد أن نفهم أن لكل خلق من خلق الله قانوناً ، وكل خَلْق منا يرى ما يدخل فى قانونه .

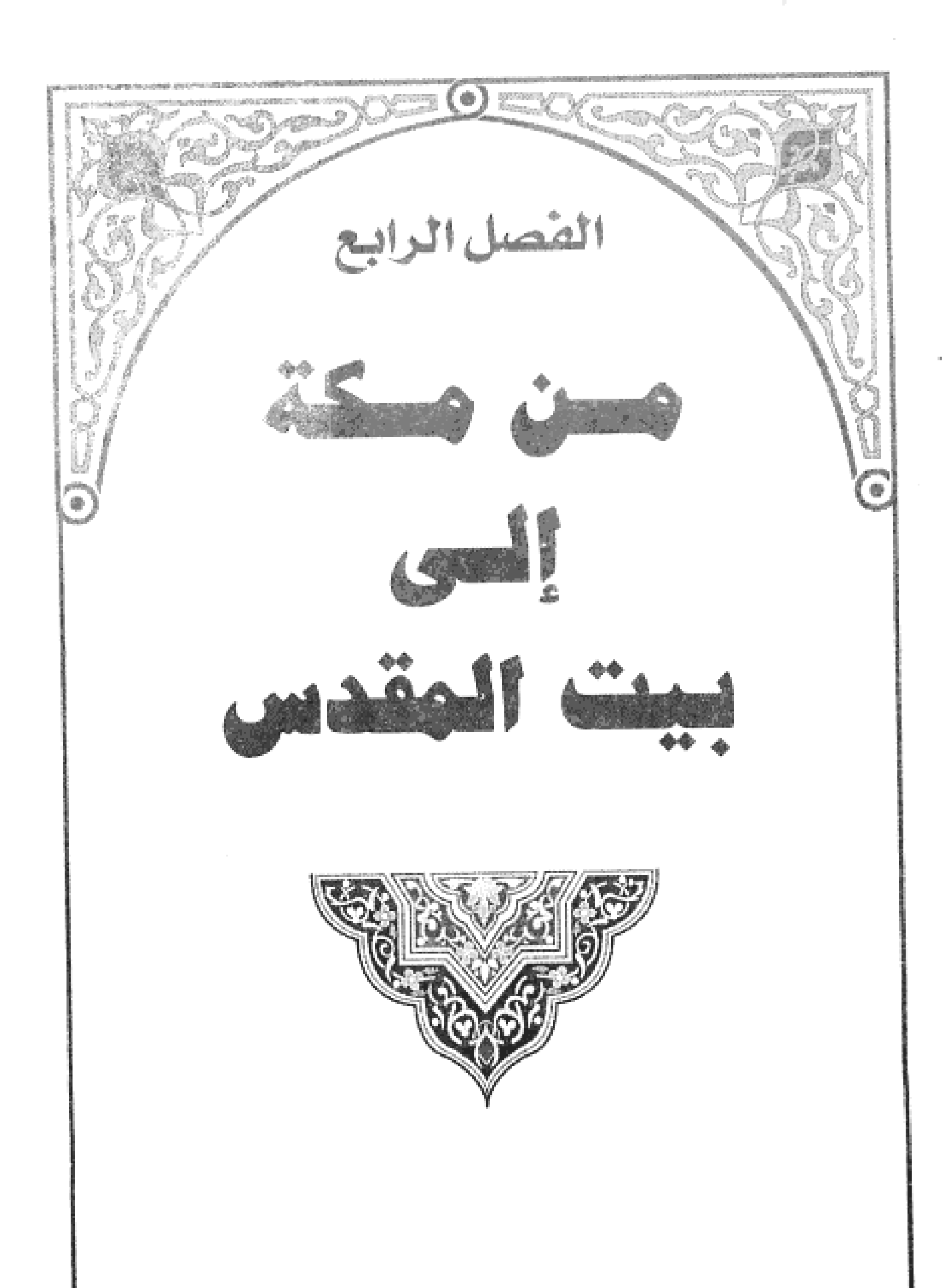
فالبشر لهم قوانين تختلف عن قوانين الجان ، فالجن مثلاً لأنه مخلوق من نار يستطيع أن يتحرك أسرع ، ويستطيع أن يتشكل بأشكال مختلفة ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - رحمة بنا قد جعل كل مَنْ يتشكل بقانون .. يحكمه هذا القانون .

ولذلك إذا تشكل الجان فى صورة إنسان وأطلقت عليه الرصاص قُتل ؛ لأنه خاضع لقانون البشر الذى تشكّل

به ، وكذلك الملائكة ، وكل خَلْق الله .. لهم قوانينهم الخاصة .

رسول الله ﷺ .. كان لا بد أن يقيم الدليل المادى والعقلى على أنه قد أُسْرِىَ به ؛ ولذلك كان لا بد أن يرى أشياء وأحداثاً تخضع لقوانين البشر ، ليأتى ويرويها لأهل مكة ، كدليل على صدْق المعجزة ، وأحداث البشر تحتاج إلى زمن ، فكل حدَث بشرى حسب قوانين خلق الله للإنسان محتاجة إلى زمن ، فنحن بطبيعة قانوننا البشرى لا نستطيع أن نفعل شيئاً فى لا زمن ، بل لا بد لكل حدث من زمن .

ولذلك اقتضت بشرية الأحداث التى سيراها رسول الله ﷺ فى الطريق بين مكة وبين بيت المقدس ، أن يتم الإسراء فى زمن ، وأن يستغرق وقتاً ، ولو أن الحق - سبحانه وتعالى - لم يرد من رسوله ﷺ أن يقيم الدليل المادى والعقلى على صدق معجزة الإسراء ، لتمَّتْ المعجزة فى لا زمن ، ولكن لأنه جل جلاله .. أراد أن يعطى رسوله ﷺ للناس الدليل المادى والعقلى على صدْق المعجزة ، جعل المعجزة تتم فى ليلة ؛ لتستوعب الأحداث البشرية فيها ، وكان هذا الوقت الذى استغرقه الإسراء ، هو من تمام المعجزة وكمالها .



## الفصل الرابع

# من مكة إلى بيت المقدس

تحدثنا عن الإسراء ، وكيف أنه تَمَّ بالروح والجسد ، وأن الله ـ سبحانه وتعالى قال : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] ، لأن الأنبياء جاءوا ليعلموا البشر العبودية لله ، التى هى أسمى مراتب الإيمان ، ثم تحدثنا عن المعجزة ، وكيف أن إسراء رسول الله ﷺ استغرق زمناً .. وكيف أنه تم ليلاً ، وما هى الحكمة فى ذلك ؟

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١)﴾ [الإسراء]

حدَّد الحق ـ جل جلاله ـ من أين بدأ الإسراء ، وإلى أين انتهى ، والمسجد الحرام هو مكان الكعبة المشرفة ، وهو أول مسجد وُضِع للناس فى الأرض منذ بداية الخلق ، اختار الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مكاناً فى الأرض هو مسجده .. مصداقاً لقوله جل جلاله :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران]

فكأن البيت الحرام كان موجوداً فى الأرض .. من قبل أن تطأها قدم بشر ، والناس يعتقدون أن البيت الحرام

هو الكعبة المشرفة . نقول : إن هناك فرقاً بين مكان البيت والعلامة الدالة على المكان .. أو كما يقولون المكين ، فمكان البيت هو هذه البقعة المباركة فى مكة المكرمة ، وليس المكان هو بقعة سطح الأرض فقط ، بل إن كل ما فوق البيت إلى السموات هو تابع للبيت .

ولذلك نجد أن بعض الناس الذين يذهبون للحج .. يُصلون فى الطابق الثانى مثلاً ، وهو أعلى من مستوى ارتفاع بناء الكعبة المشرفة ؛ نقول : إن صلاتهم صحيحة ، لأن البيت يمتد إلى السماوات ؛ ولذلك فإن ما على البيت هو من البيت ، وفى نفس الوقت فإن ما هو تحت البيت ممتد إلى باطن الأرض ، هو من البيت أيضاً .

ذلك أن جو المسجد هو من المسجد ، والملائكة والرحمات تتنزَّل على المصلين ؛ ولذلك عندما نجد فى بعض المساجد مكاناً مخصصاً للسيدات فى الدور الثانى ، مع أن الإمام يقف فى الدور الأول . أى : أن المصليات يعلون الإمام . نقول : إن صلاتهم صحيحة .

ولقد تحدثت عن المساجد الموجودة فى أسفل العمارات .. وقلت : إنها لا تعتبر مساجد إلا فى حالات الضرورة .

ذلك أن جو المسجد فى هذه الحالة توجد فيه الحائض ، ويوجد فيه الذين لم يتطهروا ، وهؤلاء يمنعون نزول الملائكة والرحمات ؛ لأنها محتاجة إلى جو طاهر ؛ ولذلك تعتبر المساجد أسفل العمارات أماكن لصلاة الجماعة ، ولا تعتبر مسجداً إلا فى حالات الضرورة .

## معنى المسجد الحرام

المسجد الحرام - أو البيت الحرام - هو المسجد الوحيد الذى يوجد فى الأرض باختيار الله سبحانه وتعالى لمكانه ، أما المساجد الأخرى الموجودة فى الأرض ، فهى مساجد باختيار خلق الله لأماكنها ؛ ولذلك جعل المسجد الحرام الذى شرفه الله باختياره قبلة لكل مساجد الأرض ، التى قامت باختيار خَلْق الله لأماكنها .

والمسجد يُطلق على مكان السجود ، وكل مكان تسجد فيه هو مسجد لك ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : « وجُعلَت لى الأرض مسجداً وطهوراً » أى : أنه تصح الصلَاة للمسلم فى أى بقعة فى الأرض .

المسجد الحرام وُجِد قبل أن ينزل آدم إلى الأرض .. وقيل : إنه فى عهد نوح .. حين أهلك الله - سبحانه وتعالى - أهل الأرض الكفار بالطوفان ، طمست المياه العلامة التى يتعرف بها الناس على مكان البيت ، ولكن البيت نفسه باقٍ كبقعة مباركة من الأرض .

وعندما جاء إبراهيم - عليه السلام - أمره الله - سبحانه وتعالى - أن يقيم القواعد من البيت .. أى : يقيم العلامات التى يتعرف بها الناس على مكان البيت .

ولكن هل كان إبراهيم يعرف المكان ؟ رغم أن الطوفان

قد أزال العلامات الدالة على المكان لم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعرف المكان ، ولذلك بيَّنه الله له .. وأرشده إلى مكانه .

وفى ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ..(٢٦) ﴾ [الحج]

وهكذا دَلَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إبراهيم على مكان البيت ، وأمره بأن يأخذ زوجته هاجر وابنهما إسماعيل ، ويتركهما فى مكان البيت ليقيما هناك ، وفجّر لهما بئر زمزم لتوجد الحياة حول البيت ، فلا تضيع معالمه بعد ذلك ، وأمر الله إبراهيم وابنه إسماعيل ، أن يقيما القواعد من البيت ، كعلامة ليعرف الناس مكان بيت الله الحرام ، فأقاما بناء الكعبة المشرّفة وحفظها الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى يومنا هذا ، لتبقى دليلاً لكل خَلْقه على بيت الله الحرام .

## السجود والإنسان

على أننا نلاحظ أن الحق جل جلاله قال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

والمسجد هو مكان السجود كما بينًا ، والصلاة التى نعرفها لم تُفرَض إلا بعد الإسراء والمعراج ، فكيف يأتى القرآن الكريم بوصف المسجد ، وهو مكان السجود بالنسبة للمسجد الحرام ، وبالنسبة للمسجد الأقصى ؟ مع أن الصلاة كما نعرفها لم تكُنْ تُقام فى المسجد الأقصى ، الذى أخذ هذا الاسم من أنه كان أقصى مكان وصل إليه العرب فى رحلاتهم وتجارتهم قبل الإسلام .

نقول : الإنسان سجد لله ـ سبحانه وتعالى ـ منذ نزل على الأرض ، وأن السجود لله فى الأمم السابقة ، وإنْ كان يختلف عن الطريقة التى نسجد بها نحن ، فإنه كان موجوداً .

وإذا قرأنا قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لإبراهيم عليه السلام : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج]

نعرف أنه كان هناك سجود لله ـ سبحانه وتعالى ـ فى عصر إبراهيم ، وقبل عصر إبراهيم ، ومنذ نزل منهج السماء إلى الأرض شُرع السجود ، ونجد أنه كان فى

اليهودية سجود ، مصداقاً لقوله - تبارك وتعالى - لبنى إسرائيل :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (١٥٤) ﴾ [النساء]

وهكذا نرى أن السجود كان مفروضاً فى اليهودية ، وكذلك كان فى النصرانية ، مصداقاً لقول الحق جل جلاله : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [آل عمران]

إذن : السجود لله - سبحانه وتعالى - شُرِع بالنسبة للإنسان منذ خلقه الله سبحانه وتعالى .

على أننا إذا تحدثنا عن كلمة مسجد ، فلا بد أن نفرق بين الأماكن التى تُخصَّص للعبادة فقط ، والأماكن التى تصلح فيها العبادة مع حركة الحياة .

لقد اتفق على أن يسمى كل مكان يُخصص للعبادة مسجداً .. وإن كانت الأرض كلها مسجداً طهوراً لأمة رسول الله ﷺ .. إلا أن هناك فرقاً .. بين أرض تُخصَّص للعبادة فقط ، وأرض تصلح لحركة الحياة .

المصنع فيه حركة الحياة ، وعندما يحين وقت الصلاة يباح لك أن تصلى فيه ، والأرض المزروعة فيها حركة الحياة وتصلح للصلاة ، ولكن إذا جئنا وميَّزنا وحددنا

بأن هذا المكان مسجد .. يصبح مقصوراً على الصلاة والعبادة فقط .. وأىّ شىء غير العبادة لا يجب أن يتم فيه .

ولذلك قال رسول الله ﷺ للرجل الذى جاء يبحث عن جمله الضال فى المسجد « لا رد الله عليك ضالتك » .. وقال للذى حضر إلى المسجد ليعقد صفقة تجارية « لا بارك الله لك فى صفقتك » . لماذا ؟

لأن المسجد مخصص لعبادة الله ، فإياك أن تشغل نفسك بأمور الدنيا فيه ، إن معنى أن الأرض كلها مسجد ، أنها تصح فيها الصلاة وتصح فيها حركة الحياة ، ولكن المكان الذى خُصِّص ليكون مسجداً ، لا تصح فيه حركة الحياة .

ولذلك ؛ فالمساجد تحت العمارات لا يتوافر فيها هذا الشرط ، لأنه يوجد فى جو المسجد ـ وجو المسجد كما بيَّنا مسجد ـ نقول : يوجد فى جو المسجد حركة حياة ، ويوجد فيه الجُنُب والحائض والرجل الذى يأتى أهله . إذن : لم تَعُدْ سماؤه مسجداً .

وقبل أن يتعلم المسلمون الطيران .. كان يحرم على الطيار الأمريكى غير المسلم .. أن يطير فى جو مكة ؛ لأن جو الحرم هو من الحرم ، ولا يجوز لغير المسلم أن يدخل الحرم .

## ما هى البركة ؟

رحلة الإسراء كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. وقصى يعنى بعيد .. وأقصى يعنى أبعد .. وكما قلنا : إن المسجد الأقصى .. كان أبعد مكان تصل إليه القوافل قبل الإسلام .

وإذا أكملنا الآية الكريمة نجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. (١) ﴾ [الإسراء]

ما هى البركة ؟ البركة هى أن يعطى الشىء أكثر مما هو متوقع له ، فمثلاً إذا أتينا بطعام يكفى ثلاثة أشخاص ، واجتمع حول المائدة عشرة أشخاص ، وأكلوا وشبعوا . نقول : إن هذا الطعام فيه بركة ؛ لأنه كان مُتوقعاً أن يكفى ثلاثة أشخاص ، ولكنه كفى عشرة ، وكذلك كل شىء يعطى أكثر ممّا هو متوقع له .

المال القليل إذا كفاك فترَة طويلة يكون فيه بركة ، والثوب إذا ظل معك سنوات وسنوات ، دون أن يَبْلَى يكون فيه بركة ، والبركة مادية دنيوية ، أو روحية دينية ، البركة التى ينتفع بها المؤمن والكافر دنيوية فقط ، أما البركة الدينية فلا ينتفع بها إلا المؤمن .

وفى ذلك يلفتنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ

هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ [الأعراف]

هذه الآية الكريمة تلفتنا .. إلى أن نعَمَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الدنيا هى للمؤمن والكافر ، أما فى الآخرة فهى للمؤمنين وحدهم .

المؤمن والكافر فى الحياة الدنيا .. يشرب الماء العذب البارد ليطفىء ظمأه ، أما فى الآخرة فإن الكافر إذا طلب الماء .. جاءوا له بماء يغلى ، ومن شدة غليانه فإن مجرد اقتراب كوب الماء من وجهه يشوى وجهه ، فإذا شربه فإن الماء يغلى فى بطنه .

والدنيا فيها طعام مختلف ألوانُه للمؤمن والكافر ، كُلٌّ يختار حسب ما يشتهى ، وحسب الرزق الميسَّر له .. فإذا جاءت الآخرة كان للكافر طعام من ضريع ملىء بالشوك لا يسدُّ جوعه ، ولكنه يُقطِّع أمعاءه .

والمؤمن والكافر فى الدنيا يتمتعان بالثياب ، كُلٌّ حسب قدراته ، هذا يلبس حريراً ، وهذا يلبس صوفاً ، وهذا يلبس قطناً ، فإذا جاءت الآخرة وطلب الكافر الثياب فثيابه من نار تشوى جسده .

وكل منَّا فى الدنيا يذهب إلى فراشه ليلاً .. ليستريح وينام علىَ فراش من قطن ، أو من ريش أو غير ذلك ، كل حسب مقدرته ، فإذا جاءت الآخرة كان للكافر فراش

من نار .. من فوقه ومن تحته .. لا تجعله ينام أبداً .

وهذا معنى الآية الكريمة التى تُبيِّن لنا أن النعم فى الدنيا للمؤمنين والكفار ، أما فى الآخرة فهى للمؤمن وحده.

إذن : البركة الدنيوية ينتفع بها المؤمن والكافر ؛ لأنها عطاء ربوبية من الله رب العالمين ، الذى خلق البشر كلهم ، واستدعاهم لكونه ، وكفل لهم أرزاقهم ؛ ولذلك فهو يعطيهم من كل الخير ، أياً كانت صوره ، دون تفرقة بين مؤمن وكافر .

وهناك بركة دينية .. يختصُّ بها الله عباده المؤمنين فقط .

المسجد الأقصى جعل الله - سبحانه وتعالى - حوله بركة دنيوية ، وبركة دينية ؛ لأنه شهد رسل الله كلهم .. إبراهيم .. وإسحق .. ويعقوب .. وزكريا .. ويحيى .. وموسى وعيسى ، وهو مهبط الوحى على كل هؤلاء ، ومن هنا كانت فيه بركة دينية .

ومعنى قول الحق .. ﴿ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ① ﴾ [الإسراء] أى : أوجدنا حوله بركتين : بركة مادية فيما تُعطى الأرض ، وفيما يأتى إليه من ثمرات ، وبركة دينية خاصَة بالقيم ، التى أُنزلت من السماء .. ومَن اتبعها أخذ بركة الآخرة .. وكانت له نعَم فى الآخرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصى ، فكأن الكافر يأخذ بركة الدنيا ، والمؤمن يأخذ بركتى الدنيا والآخرة .

## ورأى الرسول آيات

وإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء]

نجد أن الحق - سبحانه وتعالى - قد حدد مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .. وهى أن يرى رسول الله ﷺ من آيات ربه ، وكلمة الآيات لا تقال على كل شىء موجود ، وإنما تقال على الموجود العجيب .. فيقال : هذا آية فى الجمال .. أو آية فى الذكاء .. أى : جماله مبدع .. أو ذكاؤه مُفْرِط .. والآيات أُطلقت على عدة إطلاقات .. فهناك آيات الكون التى يراها المؤمن والكافر ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وتُطلق الآية أيضاً على المعجزات التى يخرق الله - سبحانه وتعالى - بها قوانين الكون لأنبيائه ، لإثبات صدق بلاغهم عن الله ، وتُطلَق على آيات القرآن الكريم .

الآيات التى رآها رسول الله ﷺ قسمان : آيات أرضية ، وهى تلك التى شاهدها خلال معجزة الإسراء ، وهى ما تحدثنا عنه .. ورؤية رسول الله ﷺ لهذه الأشياء وهو يقطع هذه الرحلة فوق البراق بين السماء والأرض هى من آيات الله .. أن يريه كل هذا بهذه الدقة وهو بعيد عن الأرض .

ولكن هناك آيات أخرى من آيات الله سبحانه وتعالى .. عجائب لم يرها أحد .. إلا رسول الله ﷺ الذى تجاوز - عليه الصلاة والسلام - فى رؤيته لآيات الله منزلة أقرب الملائكة إلى الله ، وهو جبريل عليه السلام ، وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصول القادمة .

إذن : فهدف الإسراء والمعراج .. هو أن يُرىَ الله جل جلاله رسوله ﷺ من الآيات ما يُذهب عنهَ الضيق والحزن ، الذى أصابه - عليه الصلاَة والسلام - من جحود أهل الأرض وإيذائهم وعنادهم ، ويؤكد له أن السماء بملكوتها الواسع وآياتها العجيبة - تحتفى به .

وقول الحق - سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء]

والسميع هو مَنْ يدرك الكلام ، والبصير هو مَنْ يدرك الأفعال والمرائى .. والله - جل جلاله - سميع لأقوال رسوله ﷺ .. بصير بأفعاله .. سميع لأقوال خصوم رسول الله ﷺ .. بصير بأفعالهم .

الله - عز وجل - يسمع ويرى .. القوم يُكذِّبون محمداً عليه الصلاة والسلام ويؤذونه بفاحش القول والكلام ، وبصير بما فعلوه ، حين قذفوه بالحجارة وأدْموا قدميه الشريفتين .. وسميع وبصير برسوله الكريم .. وهو

يناجيه : ( إلى مَنْ تكلنى ) .. وهو يقول : ( إنْ لم يكُنْ بك غضب عليَّ فلا أبالى ) .

ولذلك كانت استجابة السماء ليعرف الرسول الكريم .. أن كل ما يلقاه من كفر أهل الأرض وعنادهم ليس غضباً عليه من الحق - سبحانه وتعالى - ولكن لأن محمداً - عليه الصلاة والسلام - من أولى العزم من الرسل ، وأراد الله - سبحانه وتعالى - أن يؤكد لرسوله ﷺ بالغ رضاه عنه ، فأراه من آيات السماء ما عرف منه مدى رضاء الله عنه - عليه الصلاة والسلام - ومدى حبه له .

# صلاة الرسول بالأنبياء

وكانت الآية الأولى .. أن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلى إماماً بالأنبياء جميعاً فى بيت المقدس ، وكانت هناك أكثر من وقفة للمُشكِّكين فى هذا الدين ، كيف يصلى رسول الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بالأنبياء وهم مَوْتى وهو حَىٌّ ؟ نقول : إن الذين يثيرون هذا الكلام .. نسوا بداية الآية الكريمة فى قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء]

وأرادوا أن ينسبوا الأحداث لا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، ولكن إلى بشرية رسول الله ﷺ ، والقرآن الكريم لم يَقُل هذا ، ولم ينسب الفعل إلى بشرية رسول الله ، وإنما نسب المعجزة كلها إلى قدرة الله جل جلاله .

ورسول الله ﷺ لم يقل : سَرَيْتُ .. ولم ينسب الأفعال إلى نفسه ، وإنما نسبها إلى قدرة الحق جل جلاله .. وقال « أُسْرِىَ بى » وإذا كنا نريد أن نناقش المسألة عقلاً ومنطقاً .. ألَم يُعْط الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى عبد من عباده ورسول من رسله .. هو عيسى عليه السلام .. ألَمْ يُعْطه القدرة على إحياء الموتى ، وعلى أن يخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً تدبّ فيه الحياة بإذن الله .. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى :

﴿أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً

بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

ألم يُر الله ـ جل جلاله ـ عبداً من عباده .. وهو إبراهيم عليه السلام كيف يحيى الموتى .. مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كان الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أعطى بإذنه لعبدين من عباده هذه القدرة ، فما بالك إذا كان الفعل مباشراً من الحق ـ جل جلاله ـ ولم يكن بواسطة عبد من عباده ، ألا تكون القدرة أكبر ؟ والإعجاز أعلى ؟

وكما قلنا : إن الذى يحكم ما يراه أى خَلْق من خلق الله والقانون الذى يخضع له هذا الخَلْق ، وسواء غَيَّرَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قانون بشرية رسوله ﷺ .. ليصلى بالأنبياء .. أو يكون غَيَّرَ قانون برزخية الأنبياء ليصلى بهم رسول الله ﷺ . فالله ـ جل جلاله ـ قادر على الفعلين .

ولذلك ، فإن رسول الله ﷺ صلى إماماً بالأنبياء ، وتمت هذه الصلاة بالكيفية التى أرادها الله ـ سبحانه

وتعالى - وبالصورة التى قدَّرها جل جلاله .

وإذا قال قائل : كيف صلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - بالأنبياء .. ولم تكُنْ الصلاة المكتوبة فى الإسلام قد فُرِضَتْ .. نقول : إن الله - تبارك وتعالى - قادر على أن يوحى لأنبيائه بالصورة التى تتم عليها الصلاة ، كما يريدها سبحانه وكما يتقبلها تبارك وتعالى .

إلى هنا .. وينتهى الإسراء .. ليبدأ المعراج .. والأحاديث التى وردت فى إثبات معجزة الإسراء كثيرة .. بلغت العشرين حديثاً أو أكثر .. والكلام الذى قيل عنها كثير .. بعضهم قال : إنها بالروح .. وبعضهم قال : بالروح والجسد .. وبعضهم قال : رؤيا منام .. وبعضهم قال : واقع يقظة .

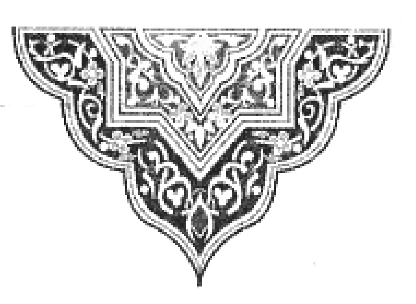
ولقد بيَّنا بالأدلة .. كيف أن الإسراء يقظة بالروح والجسد .. ثم بدأ المعراج .. وعرج رسول الله ﷺ إلى السماوات ، حتى بلغ سدرة المنتهى ، وفرضت الصلاة التى تمت بالأمر المباشر من الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام ، وليست بواسطة الوحى .

ماذا رأى رسول الله فى السماوات ؟ وكيف عرج إليها ؟ وكيف كان فرض الصلاة ؟ وما هى الآية الكبرى التى رآها الرسول الكريم فى المعراج ؟



## الفصل الخامس

# آيات السماء



قبل أن نبدأ في الحديث عن المعراج .. وصعود رسول الله ﷺ إلى السماء السابعة وإلى سدرة المنتهى .. وما رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في ملكوت السموات ، لا بُدَّ من وقفة تُقرِّب هذا كله إلى العقل ، ذلك أن المعراج هو فوق طاقة وقدرات العقل البشرى ، ومن رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أعطانا أشياء حسية تُقرِّب الغيب إلى عقولنا ، وترد على كل كافر منكر .

كل خَلْق من خلق الله سبحانه وتعالى ، له قانون يتحكم فيه ، والقانون يتغيّر بتغيُّر الخَلْق ، أو بتغير حالة المخلوق ، فهناك مَنْ له أكثر من قانون ، كل قانون ينطبق عليه في مرحلة من مراحل حياته .

فالبشر مثلاً لهم قانون يحكمهم ، مناسب لطبيعتهم البشرية ، والجان لهم قانون يحكمهم ، مناسب لأنهم خُلقوا من نار ، فمادتهم التى خُلِقوا منها ـ وهى النار ـ شفافة أكثر من الطين .

ولذلك فإن لهم قانوناً يختلف عن قانون البشر ، إنهم أكثر سرعةً فى الحركة ، وأكثر قدرة على اختراق الجدران والأبنية ، والانتقال من مكان إلى آخر ، ولهم قدرة على

التشكل ، ويرون ما لا نرى . إذن : هم أكثر قدرة منّا طبقاً لقوانين خَلْقهم .

والملائكة خُلقوا من نور ، ولهم قوانين أقوى من قوانين الجان ، وقدرة على الصعود إلى السماء والنزول منها ، وهم يرونَ ما لا نرى ولا ترى الجان .

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - قوانينه ، التى تختلف عن قوانين غيره من المخلوقات ، والتى تحكمه فلا يخرج من إطارها إلا بإذن الله .

وإذا أردنا أن نعرف ذلك ، فلنرجع إلى قصة سليمان حين أراد إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ ، قبل أن تصل الملكة إلى مجلسه ، وكانت بلقيس ملكة سبأ ، قد غادرتْ مملكتها فى طريقها إلى سليمان .

يروى لنا القرآن الكريم هذه القصة فيقول :

**﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾**

[النمل]

مَنْ هم الملأ الذين كان يخاطبهم سليمان ، ويطلب منهم أن يأتوه بعرش ملكة سبأ ؟ الله - سبحانه وتعالى - يذكر لنا بعضاً منهم .. فى قوله عز وجل :

**﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) ﴾**

[النمل]

إذن : عرفنا من هذه الآية الكريمة .. أن جنود سليمان من الجن والإنس وغيرهم .

هل عندما تكلم سليمان ، وطلب إحضار عرش ملكة سبأ ، قام إنسان وقال : أنا سأحضره ، هل قام إنسان يمتاز بقوة شديدة وخفَّة في الحركة وقال : سأحضره لك .. لا .. سكت الإنسَ جميعاً ، حتى أقوى إنسان موجود في مجلس سليمان .. لم يجرؤ على أن يفتح فمه ، لأنه يعرف أنه عاجز عن أنْ يأتيَ بعرش بلقيس ؛ لأن قوانين مادته تحكمه ، فهو غير كُفْءٍ لهذه العملية .

## الأدنى والأعلى

لقد سكت الإنس جميعاً ؛ لأن هذا الطلب فوق قدرة قوانينه ، هل تكلم الجن على إطلاقهم ؟.. لا .. سكت الجن الضعيف ، والذى تكلم هو عفريت من الجن - أى من أقوى الجان وأقدرهم - ماذا قال العفريت ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾ [النمل]

وكيف تصدّى عفريت الجن لذلك ؟ لأن قوانينه تتيح له أن يسبق البشر ، فهو يستطيع أن يذهب إلى قصر ملكة سبأ ، ويُحضر العرش قبل أن تصل الملكة إلى مكان سليمان ، وهو بحكم قوانينه أقوى وأقدر ، وحدد المدة بأنها قبل أن يقوم سليمان من مجلسه .

وكم يستغرق مجلس سليمان ؟ ساعة أو ساعتين أو نصف يوم أو أكثر أو أقل ، المهم أن عفريت الجن فى هذه المدة المحدودة سيأتى بعرش ملكة سبأ إلى مجلس سليمان .

وهنا برز تحدٍّ آخر من الذى عنده علم من الكتاب .. إنسان أعطاه الله سبحانه وتعالى - وهو الأدنى فى قوانينه - خصوصية تجعله أقدر من الأعلى قانوناً .. وذلك حتى

نعـرف أن الـقـوانين لا تحكـم إرادة الحق ـ سـبـحـانه وتعـالى ـ ولكن إرادة الحق جل جلاله ـ وهو خـالق هذه القـوانين ـ تستطيع أن تبـدل قانون الأدنى بحكم خَلْـقه ؛ لتجعله يتفوق على الأعلى بحكم الخلق أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

وهكذا أعطى الله ـ سبـحانه وتعالى ـ من الخصـوصية لإنسان ما جعله يتـفوق على مَنْ هم أعلى منه فى قوانين الخلق ، ويفعل مـا لا يستطيعـون أن يفعلوه ، وذلك بعلم علَّمه الله له الكتاب .

## وتغيرت القوانين

وهكذا نرى أن الله - سبحانه وتعالى - قادر على أن يُغيِّر من قوانين خَلْقه ما يشاء ، ولكن ليس هذا كل ما يحدث ، بل إن الله - سبحانه وتعالى - جعل قوانين مختلفة لنفس الخَلْق فى أطوار حياتهم المختلفة ، فالإنسان الذى يموت مثلاً وينتقل إلى حياة البرزخ ، يرى ما لا يراه الإنسان ، الذى ما زال فى مرحلة الحياة الدنيا .

فإذا قرأت القرآن الكريم تجد الحق - سبحانه وتعالى - يخبرنا بذلك ، فيقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾

[ق]

ألا يرى الإنسان الملائكة وهو يحتضر .. سواء كانوا ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، مصداقاً لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾

[الأنفال]

و « لو » حرف امتناع . أى : أننا لا نرى ، ولكن الذى يحتضر يرى ، كما يرى ملَكَ الموت ، الذى جاء ليقبض روحه .. إذن : فهناك قوانين ، لكل مرحلة من المراحل

التى يمرُّ بها الإنسان فى رحلة حياته .

ولكننا سنضرب مثلاً أسهل من هذا كثيراً .. سنضرب مثلاً يحدث لكل واحد منا ، ويحدث له كل يوم ، وينتقل من قانون إلى قانون فى لحظة .. الإنسان وهو مستيقظ خاضع لقوانين اليقظة ، فإذا نام انتقل إلى قوانين أخرى لا علاقة لها بقوانين اليقظة ، فهو يرى وعيناه مغمضتان ، ويمشى ويجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير ، ويتكلم ولسانه ساكن ، وهو يرى أشياء عجيبة ، لم يرها فى حياته الدنيا ، ولا تخضع لقوانين العقل .

فقد يرى أنه يطير فى الجو بجسده ، وأنه يسقط من فوق جبل عال ولا يحدث له شىء ، بل وأكثر من ذلك ، فإنه يرى الذين انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات ، ويستمع إليهم ويُكلِّمهم ويُكلِّمونه ، وتحدث له أشياء يرفضها العقل والمنطق ، ولكنه يراها فى منامه تحدث .

ما هى القوانين التى يخضع لها الإنسان عند النوم ؟ لا أحد يعرفها ، ولا يستطيع أن يحددها ، ولكنها مختلفة تماماً عن قوانين اليقظة .

وهكذا ينتقل الإنسان من قانون إلى قانون مختلف تماماً ، بمجرد أن يضع جسده على السرير ويُغمض عينيه لينام ، وإذا استيقظ انتقل إلى قانون اليقظة ، فى

قدرته المحدودة ، واستخدام حواسه البشرية لمعرفة ما يدور حوله ، فإذا نام مرة أخرى انتقل إلى قانون النوم ، بكل ما يعطيه من قواعد تختلف تماماً عن حالة الاستيقاظ .

وهكذا ـ كما ترى ـ فإن الإنسان نفسه ينتقل من قانون إلى قانون فى لحظة ، وبمنتهى السهولة دون أن يدرى أو يحس أن هناك شيئاً غير عادى قد حدث له ، فإذا كان هذا هو الحال مع البشر العادى ، فماذا يحدث مع رسول الله ﷺ خير خلق الله ، فى معجزة تتم بقدرات الله جل جلاله ؟

بلا شك أنه ينتقل من قانون إلى قانون إلى قانون ، حتى يصعد إلى السماء السابعة ، ولا يجب أن يندهش أحد لذلك ، أو يشك فيه ؛ لأننا نحن البشر العاديين ، ننتقل من قانون إلى قانون ، ونشهد ذلك ونعرفه .

## فوق قدرة العقول

وإذا أردنا أن نتحدث عما رآه رسول الله ﷺ فى معجزة المعراج ، فإنه كثير وكثير جداً ، ولكننا يجب أن نفهم أنه إذا كانت معجزة الإسراء .. هى معجزة تحدٍّ للبشر ، فإن الإسراء لم يأت هكذا ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل رسوله ﷺ يرى ما لا تتسع عقول البشر لإدراكه ، بل إن رسول الله ﷺ خلال المعراج رأى الجنة ، ورأى النار بما فيهما .

ولكن ، هل تتسع عقول البشر لإدراك ما فى الجنة ؟ إن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وبما أن المعنى يوجد أولاً .. ثم يأتى اللفظ بعد ذلك ، فلا توجد ألفاظ بشرية تستطيع أن تصف ما فى الجنة ؛ ولذلك لم يكن رسول الله ﷺ يستطيع أن يجد الألفاظ التى يمكن أن تعبر عما رآه فى الجنة ، والتى يمكن أن تُعبِّر عن كثير مما شهده الرسول ﷺ .

ولذلك ، فإن المعراج كان تثبيتاً للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليعرف البشر أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطى لرسوله ﷺ أشياءً فوق مقدور عقولهم ، وفوق مقدور تصوّر البشرية كلها ، وهذا يعطينا مؤشِّرَيْن .

أولاً : منزلة رسول الله ﷺ عند ربه ، تلك المنزلة التى فاقت البشرية كلها ، وتعدتها إلى تفضيل لم يُعطِه الحق - سبحانه وتعالى - لأحد من خلقه .

وثانياً : إن كل شىء سيحدث فى الدنيا وفى الآخرة موجود عند الله - سبحانه وتعالى - وهو جل جلاله يبديه لنا عندما يشاء ، ولكن لا شىء يخرج عن علمه ، وكل شىء موجود فى علمه ؛ ولذلك فلله - سبحانه وتعالى - أمور يبديها ولا يبتديها . أى : أنها موجودة فى علمه جل جلاله ، ولكنه يبديها لنا فنعرفها .

ولعلنا إذا التفتنا لآيات القرآن الكريم ، نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

وعلينا أن نتنبه إلى قول الحق جل جلاله ﴿ له ﴾ .. أى : أن هذا الشىء موجود .. على أننا هنا لابد أن نلتفت ، إلى أنه وإنْ ذكر الزمن فى الإسراء ، فإنه لم يُذكر فى المعراج ، لماذا ؟

لأن وجود الزمن فى الإسراء كان له مبرر ، وهو الآيات البشرية التى رآها رسولنا ﷺ ، والتى كانت دليلاً عقلياً على حدوث المعجزة ، وما دام الحق - سبحانه وتعالى - قد أعطى الدليل العقلى ، فى أنه خرق قوانين

الكون لرسوله فى أمر حسى ، تدركه العقول ، وإن غاب عن الحواس ، فالله جل جلاله ، الذى خرق القوانين فى المعجزة الأرضية ، قادر على أن يخرقها فى الصعود إلى السماء .

إذن : فرحمةً بعقولنا ، جعلنا الله بالدليل العقلى نتأكد من حدوث معجزة الإسراء ، حتى إذا حدثنا عن صعود رسول الله ﷺ إلى السماء ، فإننا نصدق ، فالأرض أرض الله ، والسماء سماؤه ، وهو قادر على أن يُغيِّر القوانين فى الأرض والسماء .

## آيات السماء

ولكن أحداً منا لم يصعد إلى السماء ، ثم يعود إلى الأرض حتى يمكن أن يسأل رسول الله ﷺ أن يصف له ما فى السماء ، كما سألوه أن يصف لهم بيت المقدس . إذن : فالمعجزة هنا فى المعراج ، لا تحتاج إلى زمن ، كما احتاجت معجزة الإسراء ، فلذلك فالزمن فيها لم يذكر ، وليس عاملاً هاماً يلزم وجوده .

رسول الله ﷺ رأى فى السماء الأولى آدم ، وفى السماء الثانية رأى يحيى وعيسى عليهما السلام ، وفى السماء الثالثة رأى يوسف ، وفى السماء الرابعة رأى إدريس ، وفى السماء الخامسة رأى هارون ، وفى السماء السادسة رأى موسى ، وفى السماء السابعة رأى إبراهيم .. كل هؤلاء أنبياء الله .. على نبينا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

هل هذا الترتيب الذى رآه الرسول للأنبياء فى السماوات يعنى أفضلية نبى على نبى .. أم أنهم جميعاً فى منزلة « عالية » ؟

نقول : إن الترتيب لا يعنى أبداً أفضلية .. والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ

﴿وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥)﴾

[البقرة]

إذن : فالتفـرقة هنا غير موجودة ، والقـرب والبُعْد من الله ـ سبـحانه وتعالى ـ ليـس بالمسافـات ، بل إن القرب والبـعد بين الإنسـان والإنسان لا تـتحكم فـيه المـسافـة المادية ، فقد يكون هناك إنسان يجلس إلى جوارك ، بينك وبينه أمـتار ، ومع ذلك فـهو بـعيـد عنك ، لا يخطر على بالك ولا تحس به ، وإنسـان بعيـد عنك مئـات الأميـال ، ومع ذلك فـهو قـريب من نفسك ، فـأنت تفكر فيـه طول الوقت ، وتُحس به كل لحظة ، وهو أقرب إلى نفسك ممَّنْ يعيشون معكَ .

وهذا يفـسـر لنا مـعنى قُـرْب الله من الـناس ، لأنهم مشغولون به وبعبادته ، وذِكْره وتسبيحه ، ولا يدخل فى ذلك المسافات .

## معنى مشاهد المعراج

رسول الله ﷺ رأى أشياء كثيرة فى المعراج ، لن نتعرض لها جميعاً ، ولكننا سنعطى فقط بعض الأمثلة .

مر رسول الله ﷺ على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، وكلما حصدوا ، عاد الزرع فى نفس ساعة الحصاد كما كان قبل أن يُحصد ، فسأل جبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فإنه يُضَاعف لهم .

ورأى - عليه الصلاة والسلام - امرأة عجوزاً حاسرة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة ، فلما سأل رسول الله ﷺ عنها . قال جبريل : هذه هى الدنيا .

وهذا المثَل يُقرِّب إلينا معنى الحياة الدنيا ، وهى أنها تغرى الناس بزينتها وتفتنهم ، ولكنهم لا يأخذون منها شيئاً .

لماذا رأى رسول الله ﷺ الدنيا فى صورة امرأة عجوز ؟.. لأنه لم يَبْقَ من عمر الدنيا الكثير ، فرسول الله ﷺ يقول : « بُعثْت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه .. وهذا دليلَ على أن الساعة قد اقتربت ، ولم يبق من عمر الدنيا الكثير ؛ ولذلك فهى تبدو كامرأة عجوز .

ولكن الإنسان لا يجب أن يشغل نفسه بعمر الدنيا ؛ لأن عمر الدنيا لا يقاس بما بقى من حياة الكون ، ولكن يقاس بعمرك أنت فيها ، وإذا كان متوسط عمر الإنسان ستين أو سبعين سنة ، فبقاؤك فى الدنيا قصير ، محدود بعمرك وينتهى .

فكأن الدنيا مهما أعطتْك ، فإن عمرها بالنسبة لك قصير ، ستون أو سبعون سنة ؛ ولذلك فهى تبدو دائماً كامرأة عجوز ؛ لأن الإنسان لا يمكث فيها إلا قليلاً .

## الرؤوس والصلاة

ثم رأى رسول الله ﷺ أشخاصاً يرضخون رؤوسهم بالصخر ، أى : يضربونها بالصخر بشدة ، حتى تُشقَ وتسيل منها الدماء ، ثم تعود كما كانت ، ويعودون هم مرة أخرى ليضربوا رؤوسهم بقوة فى الصخر ، ثم تعود كما كانت فقال الرسول الكريم : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .

هذا المثل يرينا أن العقوبة تأتى من واقع الأوامر المنهجية ، فكما عُرض على رسول الله ﷺ اللبن والخمر .. فاختار اللبن .. فقيل : هُديتَ إلى الفطرة .. لأن الفطرة بطبيعتها نقية ، واللبن نشربه لا صنعة للإنسان فيه ، بينما الخمر لا بد أن نترك الثمر الذى تصنع منه حتى يتعفن ويتخمر .

واللبن لأننا نشربه كما خلقه الله يحفظ لنا عقولنا وأجسادنا سليمة .. بينما الخمر ـ لأنها دخلت فيها صناعة البشر ـ تُفسد العقل وتُعطله ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد عقل الإنسان واعياً ، حتى ينفذ التكاليف من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك .

هذا العقل عندما تُغيِّبه بالخمر فكأنك ـ بفعلك هذا ـ رددْتَ على الله نعمته الكبرى التى تُمكِّنك من أداء

التكاليف . فكيف تصلى ، أو تصوم ، وعقلك غائب ؟!

إذن : تغييب العقل هنا جريمة كبرى فى حق التكليف ، فإذا جئنا إلى المتكاسلين عن الصلاة ، فإن الذى يجعل الإنسان يتكاسل عن الصلاة .. هو عقله وفكره .. لأن العقل يصور له أنه لو ترك البيع .. فسيُفلس وسيذهب رزقه ، فيستمر فى التجارة ويتكاسل عن الصلاة ، أو يفكر فى مشاكل أخرى خاصة بحركة الحياة ، ويتكاسل عن الصلاة ؛ ولذلك جاء العقاب فى المكان الذى يوجد فيه العقل مناط التكليف ، لأن المجنون والذى لا يكتمل عقله لا يُكلَّف .

ورأى رسول الله ﷺ خلال المعراج ، قوماً تُقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قُرضَتْ عادت كما كانت ، فسأل : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، الذين يقولون ما لا يفعلون ، وأى شىء فى الدنيا قد لا يتأثر فى الفصل بين القول والفعل .. قدر تأثر منهج الله ، ذلك أن عالم الدين لا بد أن يكون قدوة ، حتى يتبعه الناس ويستمعوا له .

فعالم الكيمياء مثلاً أو الفلك أو الهندسة .. قد يفعل ما يشاء من سلوك غير قويم .. ولكن هذا لا يؤثر على أن يأخذ عنه الناس علم الهندسة أو الطب أو الكيمياء أو غير

ذلك ، إلا عالم الدين ، إذا لم يكن قدوة دينية وسلوكية ، انصرف عنه الناس ، ورفضوا أن يأخذوا عنه دينهم .

ولذلك ؛ فإن خطباء الفتنة هؤلاء الذين قالوا شيئاً ، وفعلوا شيئاً مخالفاً ، صرفوا الناس عن دينهم ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد مكّنهم من الدين ومن وَعْظ الناس ، ومع ذلك لم يرعوا هذه النعمة بأن يكونوا قدوة دينية سلوكية ، ويعملوا بمنهج الله ، بل انطلقوا يفعلون غير ما أمر به الله ، وعندما أحسَّ الناس بذلك رفضوا أن يأخذوا عنهم العلم وضلّوا .

ولذلك تُقرض شفاههم وألسنتهم التى كانت سبباً فى أن ينصرف الناس عن الدين ، وأن يبتعدوا عن منهج الله .

ويلفتنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى ذلك فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

## مسئولية الكلمة

ورأى رسول الله ﷺ صخرة يخرج منها ثور كبير ، ويريد الثور أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .. قال جبريل لما سأله رسول الله ﷺ : إن هذا مثل الرجل يعطى الوعد ويقسم عليه ، ثم لا يستطيع أن يفى به ، ولا أن يرجع فيما وعد وأقسم .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يطالبنا بألاَّ نُكثر من القسم ، وألاَّ نَعد بشىء ، إلا ونحن قادرون على الوَفاء به ؛ ولذلك يقولَ الحق جل جلاله :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) ﴾ [النحل]

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .. (٩١) ﴾ [النحل]

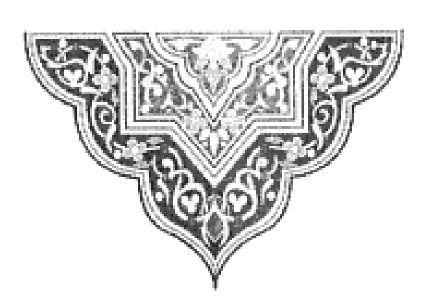
والرجل يقول الكلمة ويعطى العهد ، وقد لا يتنبه أن عليها حساباً ، ويحاول الرجوع فيهما فلا يستطيع .

على أن هناك مرائى كثيرة .. رآها رسول الله ﷺ فى المعراج ، وهناك الآية الكبرى التى أراها له الله ، وهناك سدْرة المنتهى التى وصل إليها رسول الله ﷺ ، وهناك الكَثير مما سنتحدث عنه .



## الفصل السادس

# الآيـة الكبـرى



مـــا زلنا مع مـــا رآه رســـول الله ﷺ فى مـعـجــزة المـعـراج ، ووصوله إلى سدرة المنتهى ، وإذا كنا سنعرض لبعض ما رآه رسول الله ﷺ فإننا سنعطى أمـثلة فقط ؛ لأننا لن نستطيع الإحاطة بكل الروايات .

والناس فى الدنيا مشـغولون بشيئين : المال يجـمعونه من حـلال وحرام ، وأعراض النـاس يعتـدون عليهـا قولاً وفعلاً .

إذن : فالمـال والعِرْض هما أساس الفـساد فى الأرض ، المال رآه رسول الله ﷺ فيما سـيتعرض له أكلة الربا ، فقد رأى رسولنا - عليه الصلاة والسلام - قـوماً يسبحون فى بحر مـن دم ، ويلقفون الـحجارة بأفـواههم ، فســأل عنهم جبريل عليه السلام . فقال : هؤلاء أكلة الربا .

وهذا تجسـيد مادى لما يفـعله أكلة الربا ، ذلك أن الدم حـين يكون فى الجـسد يكون نافـعـاً ، وحين يخـرج من الجـسـد يكون فـاسـداً لا فائدة منه ، فكأن هؤلاء الذين يأكلون الربا ، هم الذين أخرجوا المال عن وظيـفته النافعة فى الحياة ليفسدوه بالربا ، وبذلك يكونون قد منعوا المال

من أن يؤدى دوره فى حركة الحياة ، فيضيع الاقتصاد فى الأرض ، ولذلك فهم استبدلوا بالغذاء النافع للإنسان .. لَقْم الحجارة التى لا تنفع .

والربا معناه أن يزداد الغنىّ غنىً والفقير فقراً .. وليست هذه هى وظيفة المال فى الدنيا ، لأن المال يستخدم فى عمارة الأرض وفَتْح أبواب العمل للناس ، والتصدق على الفقير والمحتاج ، ولكن الربا بدلاً من أن يجعل الدم يجرى فى العروق ، ليعطى الإنسان القدرة على العمل والإنتاج ، أخرجه من العروق ليصبح وسيلة لعدم العمل وعدم عمارة الأرض .

فالمرابى لا يزداد ماله بالعمل ، ولكن باستغلال حاجة الناس ، وهؤلاء أكلة الربا فى بطونهم النار ، والنار وقودها الحجارة ؛ ولذلك فهم يُلْقمون الحجارة حتى تستمر النار مشتعلة فى بطونهم لا تنطفىء أبداً ، فهم بلقمهم للحجارة ضمان لاستمرار الوقود حتى لا تنطفىء النار .

أما عن الأعراض التى تمثل الفساد الثانى فى الكون ، فقد رآها رسول الله ﷺ فى صورة الذين يعتدون على أعراض الناس قولاً وفعلاً ، والذين يعتدون على أعراض الناس قولاً قوم لهم أظافر من نحاس يخدشون بها

وجـــوههم وصـــدورهم ، والوجـــه هو أكـــرم شىء فى الإنسان .

فأنت عندما تريد أن تذل إنســانا .. تقول : إنك وضعت أنفـه فى التراب ، ومـعنى ذلك منتهى الذلة ، وهـؤلاء قد اعـتدوا على أعـراض الناس قـولاً .. وشوّهوا صـورتهم ، فيـأتى الله بهم يوم القيـامة ، ليشـوهوا أكرم شىء فـيهم وهو الوجه ، جزاءً بما شوّهوا به صور الناس .

## الحلال والحرام

ورأى رسول الله ﷺ أناساً يتركون اللحم الطيب أمامهم ويأكلون اللحم النتن ، فسأل جبريلَ عنهم فقال : هؤلاء هم الزناة .. الرجل تكون عنده المرأة حلالاً طيباً ، فيتركها ويذهب إلى المرأة فى الحرام ، والمرأة يكون عندها الرجل حلالاً طيباً ، وتذهب إلى الرجل فى الحرام .

ورأى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - رجلاً يحمل حِمْلاً لا يقدر عليه ، ثم يمد يده إلى شىء آخر ليزيد حَمله ، وقال جبريل : هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ويعجزون عن أدائها ، ومع ذلك يحبون أن يزيدوا ظهورهم حملاً بقبول أمانات جديدة .

هذه هى بعض المرائى التى رآها رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل بعض الناس : كيف رأى رسول الله المتكاسل عن الصلاة ؟ مع أن الصلاة المكتوبة فى الإسلام لم تكن فُرِضَتْ ، وكيف رأى كل ما رأى مع أنه لم يأت زمانه بعد ؟

نقول : إن الله - سبحانه وتعالى - عالم غيب السماوات والأرض ، كل شىء موجود فى علمه .

وإذا كنا نحن البشر إذا أردنا أن نبنى عمارة ، جعلنا لها نموذجاً مُصغراً يُسمَّى « ماكيت » وكلما كان المهندس

بارعاً كان هذا النموذج بالغ الدقة والتفاصيل ، فكيف بالله - سبحانه وتعالى - وهو المبدع الأعظم لهذا الكون .. عنده صورة لما سيحدث فى كونه ، من بداية الخلق إلى الخلود فى الجنة أو النار ، وما سيحدث بعد ذلك ، مما لا يعلمه إلا الله .

وإذا كان المهندس البشرى كلما كان بارعاً ، قامت العمارة وَفْق النموذج الذى أعدّه لا يختلف عنه ، كذلك عمارة الكون تتم وفْق علم الله القدير الذى لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولَا فى السماوات ، والتنفيذ هنا بقدرة الخالق ، وما دام الله - سبحانه وتعالى - وحده ، عنده غَيْب السماوات والأرض ، ففى علمه كل شىء ، وكما قلنا ، فإن عنده جل جلاله أموراً يبديها ولا يبتديها .

# ما هى سدرة المنتهى ؟

وظل رسول الله ﷺ ومعه جبريل يصعدان حتى وصلا إلى سدرة المنتهى ، وسدرة المنتهى هى المكان الذى ينتهى عنده علم الخلائق كلها ، ولو بالوحى .

إذن : فسدرة المنتهى هى التى ينتهى عندها علم خلق الله سبحانه وتعالى ، إنساً وجناً وملائكة ، حتى الأشياء التى تُوحَى .. تقف فى العلم عند سدرة المنتهى .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) ﴾ [النجم]

وهنا نسأل : مَن الذى رآه الرسولُ مرة أخرى ؟

يقال : إنه جبريل .. رآه فى صورته كما كان ينزل بالوحى طوال رحلة الإسراء ، ثم رآه فى صورته الملائكية الحقيقية مرة أخرى عند سدرة المنتهى .

ولابد أن نفهم أن القوانين التى خضع رسول الله ﷺ لها عند سدرة المنتهى ، كانت أرقى قوانين الخَلْق ؛ لأنه وصل إلى المكان الذى ينتهى عنده علم الخلق كلهم ، وعند سدرة المنتهى لا يمكن لأىٍّ مخلوق من مخلوقات

الله .. أنْ يصفَها أو يصفَ جنة المأوى .

إن العلم لكى ينتقل من بشر إلى آخر .. لابُدَّ له من أسلوب ، والأسلوب يحتاج إلى اللغة ، واللغة تحتاج إلى توضيح ، والتوضيح يوجب علينا أن يوجد المعنى أولاً .. ثم بعد ذلك يُوجد له اللفظ ، وهذه أمور لم تسمعها آذاننا ولم تَرهَا عيوننا ، ولم تدركها عقولنا ، ولا خطرتْ على قلوبنا .. كيف نضع لها ألفاظاً ؟

لابد أن نأخذها عن الله - سبحانه وتعالى - بما أخبرنا به ، دون أن نسأل : كيف ؟ أو نحاول الحصول على توضيح ؛ لأننا عاجزون ، فإذا أخبرنا الحق - سبحانه وتعالى - بشىء يُقرِّب الصورة إلينا فإننا نأخذه عند قول الله تبارك وتعالى .

ولذلك عندما يُحدِّثنا الله - سبحانه وتعالى - عن الجنة ، فإنه لا يعطينا صورتها ؛ لأنه ليس عندنا معانٍ تعطينا الصورة الحقيقية ، ولكنه جل جلاله يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

ولكن هل هذه هى الجنة ؟ إنها مثلها فقط ؛ لأن الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على

قلب بشر ، فلا يمكن أن يستوعب العقل البشرى ما فيها ، ولكن الحق - سبحانه وتعالى - يُقرِّب الصورة إلينا بقدر ما تفهم عقولنا المحدودة .

فإذا وصلنا إلى المرحلة التى يدخل فيها المؤمنون الجنة ، فإننا سنرى - إن شاء الله - نعيماً لا يعرفه أهل الأرض ، وليس لهم إِلْفٌ به ؛ لأنه فوق قدرة عقولنا جميعاً .

## الآية الكبرى

الحق عز وجل يقول :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

وإذا تدبرنا هذه الآية .. لوجدنا أنها إخبار من الله - سبحانه وتعالى - لنا ، وليست إخباراً من رسوله ﷺ .. رسول الله - عليه الصلاة والسلام - لم يقل : رأيت الآية الكبرى ، ولكن الله عز وجل هو الذى أخبرنا بها ، ولكن هل أخبرنا الحق - سبحانه وتعالى - بها .. لأننا سنفهم أو سنعرف ؟ أو تستطيع عقولنا أن تستوعب ما هى الآية الكبرى لله سبحانه وتعالى ؟ طبعاً لا ، فنحن قاصرون عن فهم آيات كثيرة لله - تبارك وتعالى - فما بالك بالآية الكبرى ؟!

إن لله جل جلاله آيات لا تُعدّ ولا تُحْصى ، آيات نراها وندركها ، وآيات هى غَيْب عنّا فى الأرض وفى السماء ، لا نراها ولا ندركها ، والكون كله آيات قد لا ننتبه إلا للقليل منها .

ولقد ورد اسم الآية الكبرى بالنسبة لموسى - عليه السلام - فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)﴾ [طه]

نقـول : إن لله - سبـحانه وتعـالى - آيات كبـرى فى الأرض ، وآيات كبرى فى السماء ، ولقد رأى موسى عليه السلام الآية الكبـرى فى الأرض ، أما رسـولنا ﷺ فلقـد رأى آية ربه الكبرى فى السماء .

أخـبـرنا الله جل جـلاله أنه أرى رسـولنـا الكريم الآية الكبرى فى السـماء ، وهذا الإخـبار ليس مقـصوداً به أن نفهم ونعرف ما هى الآية الكبرى لله - سبحانه وتعالى - لأنها كما قلنا : فوق طاقة عقولنا ، ولكن المقصود بها هو أن نعرف المنزلة الرفيعة لرسول الله ﷺ عند ربه .

وما دام رسول الله - عليه الـصلاة والسلام - قد رأى الآية الكبـرى ، فلا بُدَّ أنه رأى قـبلهـا آيات وآيات ، ولكن بعض المفسرين يقولون : إن معنى قوله تعالى :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (18)﴾ [النجم]

أن رسـول الله ﷺ رأى الآيات الكـبرى لله . أى : الآيات العظيمـة لله سبحانه وتعـالى ، وأن الكبرى وصف للآيات بأنها كـبرى ، ولكن السياق يؤكـد أن رسول الله ﷺ رأى الآية الكبـرى من آيات ربه ، فآيات الله التى رآها رسـوله الكريم فى السمـاوات كلها آيات كبـرى ، وحَسْبُهـا عظمةً أنها منسوبة لله سبحانه وتعالى .

ولكن هناك آية كـبـرى رآها رسـولنا - عليـه الصـلاة

والسلام - تقف العقـول عندها بلا حركة .. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم] لو أخذناها بالسياق اللغوى ، لكان معناها : لقـد رأى الآية الكبرى من آيات ربه ، فكأن الكبرى هى المفعول ، وليست وصف الآية .

ولذلك عندمـا نقـرأ الآية الكريمـة : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ .. (١٨)﴾ [النجم] مـاذا رأى من هذه الآيات ؟ رأى الآية الكبـرى ، ولقـد كانت رؤية رسـول الله ﷺ للآية الكبـرى هى المرحلة الأخيرة فى رحلة المعراج .

## وقف جبريل .. وتقدَّم الرسول

لقد كان جبريل عليه السلام يصاحب رسول الله ﷺ طوال رحلته فى السماوات ، ولكن الآية الكبرى لم يقدر عليها جبريل ، ولا أحد من الملائكة المقربين لله - سبحانه وتعالى - بل انفرد برؤيتها رسولنا الكريم .

ولذلك ، فإن جبريل كان يتقدم رسولنا الكريم ، ويسأله الرسول عمّا يرى ، ويفيده جبريل طوال رحلة المعراج .

وعندما وصلا إلى سدرة المنتهى ، حيث رأى رسولنا الكريم جبريل على الهيئة التى خلقه الله عليها ، وليس على الهيئة التى كان ينزل بها فى الوحى ، عندما وصل رسول الله ﷺ وجبريل إلى سدرة المنتهى .. لم تكن رحلة المعراج قد انتهت ، وإنما كان لها بقية ، فأراد رسول الله ﷺ من جبريل أن يتقدمه فى بقية الرحلة ، كما حدث فى المعراج كله ، ولكن جبريل امتنع وقال : هنا مقامى .. لو تقدمت لاحترقت .. وأنت يا رسول الله لو تقدمت لاخترقتْ .

ما معنى هذه الجملة ؟ معناها : أن قوانين ملائكية جبريل لا تسمح له إلا بالوصول إلى سدرة المنتهى ، وهى - كما قلنا - التى ينتهى عندها علم الخلائق كلها ولو بالوحى ؛ ولذلك فإنه إذا تقدم فإن قانونه لا يتحمل فيحترق .

## درجة لا تتحملها الملائكة

ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى درجة لا تتحملها ملائكية جبريل عليه السلام ، فأصبح رسولنا الكريم وحده الذى يستطيع أن يتقدم وأن يخترق .

وبهذا تكون الآية الكبرى هى المرحلة الأخيرة للمعراج التى لم يقدر عليها جبريل ، ولا أحد من الملائكة ، وانفرد رسول الله ﷺ بها .

ولقد رأى رسولنا ﷺ خلال رحلة المعراج مشاهد كثيرة ، رآها رمزاً مقدوراً ، وسنراها رمزاً مفعولاً بالنسبة للناس فى الآخرة .

والحق - سبحانه وتعالى - يُحْكِم آياته فى كل ما يقع فى الكون ، فهو بعلمه وقدرته يَحكم الآيات حتى فى الأمور التى للبشر اختيار فيها .

ولذلك عندما نزلت الآيات الكريمة

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ [المسد]

هذه الآية أخبرتنا بمصير أبى لهب ، وهو ما زال على قيد الحياة أى : فى فترة الاختيار البشرى ، ومع ذلك فإن أبا لهب لم يخطر على باله أن يعلن إسلامه ولو نفاقاً أو رياء ، ليهدم قضية الدين ، بل بقى على كفره ؛ ليكون

- وهو الكافر - آيةٌ على صدق القرآن الكريم .

وعندما نزلت الآية الكريمة :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) ﴾ [الروم]

لم يخطر على بال أحد من الروم أو الفرس أن يتقدم لعقد صلح أو إنهاء حرب ليهدم الدين الجديد ، ورغم أنه قد مر حوالى تسع سنوات ، بين نزول الآية الكريمة وانتصار الروم ، وكان هذا الزمن كافياً جداً ، ليعقد الفرس والروم صلحاً ويتجنبوا الحرب ، فإن هذا لم يحدث ووقعت الحرب وانتصر الروم كما أخبر القرآن .

كل هذا يرينا أن المشاهد التى رآها رسول الله ﷺ وهى واقع مقدر أى : ما زال فى قدر الله ستتحقق لما رآها رسولنا الكريم ، وسنراها واقعاً فى الآخرة .

## حقيقة وصاية موسى

إلى هنا ونأتى إلى النقطة الأخيرة .. وهى : فرض الصلاة ، وكل أركان الإسلام وأحكامه جاءت بالوحى ، إلا الصلاة ، فإنها فُرِضَت بالأمر المباشر من الله - سبحانه وتعالى - فالصلاة هى الصلة بين السماء والأرض ، وهى صلة العبد بربه ، وهى الرمز لعبودية الإنسان للخالق العظيم .

وكما قلنا .. فإن كل الرسالات السماوية جاءت لتبين للناس : كيف يعبدون الله ، العقل البشرى يستطيع أن يصل إلى أن هناك قوة كبرى هى التى خلقتْ وأوجدت هذا الكون ، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى ما يريده الله من خَلْقه ، وكيف يعبدونه ؟ وما هو منهج الخالق العظيم ؟

والصلاة هى جامعة لأحكام الدين كله ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، فإنْ صَلُحَتْ صلُح الدين كله ، ولذلك ، لعظيم قدر الصلاة التى فيها العبودية الحقة لله والسجود له ، فُرِضَتْ بالأمر المباشر من الله جل جلاله ، إلى رسوله ﷺ .

وسنتحدث تفصيلاً عن الصلاة فى كتب قادمة تصدر عن هذه المكتبة .. إن شاء الله .

الصلاة المفروضة من الحق - سبحانه وتعالى - عبادة تُقرِّبك من الله ، أو تُقرِّبك من خالقك ، فهى لا تعطيك مالاً ولا جاهاً .. ولا أى شىء دنيوى ، والإنسان صناعة الله تبارك وتعالى ، فالله هو خالقه ، وكل صنعة تقف أمام مهندسها ومُوجِدها كل يوم خمس مرات ، لابُدَّ أن تكون على أوْفَى شىء من الصلاح .

وإذا كان المهندس من البشر يصلح الآلة بالماديات ، فالله - سبحانه وتعالى - يصلح عبده - الذى يقف بين يديه خمس مرات كل يوم - بالغيبيات ، فتجد أنك بعد الصلاة قد ارتاحت نفسُك وزالتْ همومك ، وأصبحتَ قوياً فى مواجهة أحداث الحياة .

وأركان الإسلام الأخرى قد تسقط عن العبد ، فالفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، ولكن الصلاة لا تسقط عن المؤمن أبداً . فإنه إذا لم يستطع أن يصلى واقفاً صلى جالساً ، فإن لم يستطع صلى راقداً ، فإذا لم يستطع أجرى الصلاة على جوارحه ، ولذلك فهى لا تسقط أبداً .

وإذا أردنا أن ندخل فى الموضوع .. وهو فرض الصلاة . فالروايات قالت : إن الله - سبحانه وتعالى -

فرض خمسين صلاة فى اليوم والليلة .. وعندما التقى رسول الله ﷺ وهو عائد بموسى عليه السلام ، قال له : ارجع إلى ربك واسأله التخفيف .. وتكرر هذا حتى صارت خمساً فى الأداء .. وخمسين فى الثواب .

هنا يجب أن نفرق بين عداوتنا لليهود وموسى عليه السلام . فموسى رسول من أولى العزم ، ولا يجب أن يكون فى نفوسنا له إلا الحب والتقدير ، بصرف النظر عن شعورنا نحو اليهود ، الذين بدّلوا وغيّروا فى التوراة ، ولو أن هؤلاء كانوا أتباع موسى حقاً لآمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - لأنه مذكور عندهم فى التوراة ، ولكن اليهود أتباع موسى اسماً .. وليسوا أتباعه حقاً .

لقد قالوا : إن لقاء رسولنا ﷺ بموسى ، وما تبعه من تخفيف الصلاة ، هو فرض لوصاية موسى على الإسلام ، وهذا غير صحيح .

ما هى الوصاية ؟ هى أن تفرض الشىء الذى تريده ولو قهراً على صاحبه ، هل فرض موسى - عليه السلام - شيئاً على الإسلام قهراً أو اختياراً ؟ لم يحدث ذلك .

وكانت هذه العبارة - عبارة الوصاية - تكون صحيحة لو أن موسى هو الذى خفّف الصلاة من خمسين إلى

خمس .. ولكن مَن الذى خفض عدد الصلوات ؟ إنه الله جل جلاله هو سبحانه وتعالى الذى فرض ، وهو سبحانه وتعالى الذى خفف ، فأين الوصاية والأمر كله من الله .

رسولنا ﷺ عاد لمصدر التشريع الأصلى ، ومنه أخذ الأمر ، ومنه كان التشريع ، فكيف يقال : إن هناك وصاية من أحد ؟ والأمر كله لله .

إذا كان هناك شىء يستدل عليه من تخفيف عدد الصلوات وإبقاء ثوابها دون أى نقصان ، فهو أن الله - سبحانه وتعالى - كان رحيماً بأمة محمد - عليه الصلاة والسلام - فأبقى الثواب كما هو لم ينقص ، مع تخفيف عدد الصلوات .

إذن : فالوصاية هنا هى لله - سبحانه وتعالى - وحده ، فهو جل جلاله الذى شرَّع ، وهو الذى خفَّف ، ولا يمكن أن يقال أى تفسير آخر .

إلى هنا وننتهى من حديثنا ، عن معجزة الإسراء والمعراج .. تلك المعجزة التى فاقت كل المعجزات .. فقد أُسْرِىَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. وعُرِج به إلى سدرة المنتهى ، و ﴿ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم]

وهنا نلاحظ أن الله - سبحانه وتعالى - قد قال : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم] ولم يقل : أَرَيْنَاهُ .. لماذا ؟ لأن رسول الله ﷺ فى هذه المنزلة العالية رأى بنفسه ، ولم يكن فى حاجة إلى إراءة ، لأنها منزلة عالية جداً ، ليس فيها ما يحجب الرؤية .

والله نسأل التوفيق والهدى .

# الفهـــرس

صفحة

صفحة

رقم الإيداع ٥٨٦١/٩٧

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0336 - 7

طبع بمطابع دار أخبار اليوم